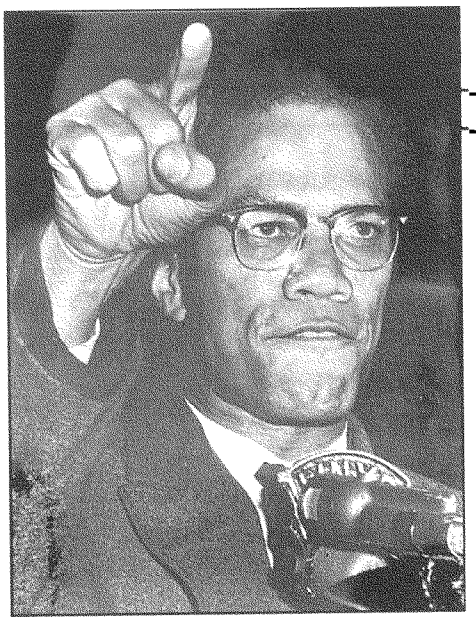

مالكوم اكس Malcolm x
الحاج مالك الشاباز (١٩٢٥ ـ ١٩٦٥)

ترجمة وتقديم: أيمن حنا حداد

تُعدّ مأساةُ استعباد الأفارقة السود على يد المستوطنين الأميركيين طوالَ ٤٠٠ عام أحَد أشدّ فصول التاريخ عنفاً ووحشيّة. وفي المقابل، نشأتْ فصولٌ من المقاومة والنضال قام بها الأفارقة السود منذ الأيام الأولى لاستعبادهم وإلى يومنا هذا، مُشكّلةً ملحمةً من البطولة والنضال تكاد لا توازيها تجربةٌ أخرى في العالم من حيث تنوعُها وعمقُها التاريخيّ وآثارُها على التاريخ الإنسانيّ.

كنّا في عددٍ سابق من الآداب قد تحدّثنا عن تجربة مارتن لوثر كنغ الابن. وفيما يلي سنسلط بعضَ الضوء على تجربة مناضل آخر من مناضلي هذه الملحمة، وهو مالكوم اكس، الذي يُعدّ من أهم قادة الحركة التحررية، رغم أنّ فترة نشاطه السياسيَ لا تتجاوز العقد من الزمان. وتنبع أهميته من عدة أسباب: فقد ظهر في فترةٍ كان التيارُ السائدُ فيها هو تيار اللاعنف، في حين كان مالكوم ينادي بأنّ على السود الأخذَ بأسباب القوة وبالدفاع عن النفس «بكل الوسائل الضرورية»؛ فكان أن جذب عدداً كبيراً من الناس إلى المقاومة العنيفة التي شكلتْ (مع التيارات التحررية الأخرى) ضغطاً على الحكومة الأميركية دَفَعَها إلى إجراء تغييرات جذرية في القوانين المجحفة بحق السود.

كذلك طوّر مالكوم الكثيرَ من الأفكار والمبادرات التي غيّرتْ من مسار نضال السود في أميركا، ومهّدت السبلَ لظهور عدة منظمات وأفكار على الساحة السياسية بعد غيابه، مثل: منظمة «الفهود السود» وفكرة «قوة السود». وتشكل أفكارُهُ مكوّناً أساسياً لا غنى عنه من مكوّنات نضال السود في أميركا.

أكثر ما يثير في فكر مالكوم اكس هو التطور السريع والتجدد والاستفادة من التجارب. فهو يقول في رسالة بعثها إلى زوجته أثناء أدائه لفريضة الحج: «... كنتُ على الدوام رجلاً يحاول مواجهةَ الحقائق، وتقبُّلَ واقعِ الحياة كما تكشف عنه المعارفُ والخبراتُ الجديدة». وسيتّضح فيما يلي أنّ مالكوم بدأ بالمناداة بأنّ البيض هم عرْق من الشياطين، وبالدعوة إلى الانفصال عن أميركا، بالإضافة الى أفكار أخرى غيبية وخرافات هائلة... ولكنّه انتهى قائداً سياسياً ذا فكر متميّز وقراءة مبدعة للواقع. وكانت حياتُه الشخصية ووضعُه الاجتماعيّ انعكاساً لتطوره الفكريّ: فلقد بدأ سنيَّ شبابه الأولى باللصوصية والإجرام، ثم انقلب إلى الزهد والعلم والكفاح، ووصل إلى مصاف أهم القادة والمناضلين في تاريخ الأفارقة الأميركيين.

لقد وجدتُ أنّ الطريقة الوحيدة لإعطاء صورة واضحة عن مالكوم اكس هي عرضٌ لمقتطفات من خطبه وحواراته بحسب تسلسلها الزمنيّ، ليظهر مالكوم في تطوّره الفكريّ. وسأقدّم هنا ترجمةً لأربع خطب ألقاها: الأولى في أيامه المبكرة مع منظّمة «أمة الإسلام»؛ والثانية قبل انسحابه من هذه المنظمة ببضعة أسابيع وجرت في مدينة ديترويت في العام ١٩٦٣؛ أما الثالثة فهي خطبة ألقاها بعد انفصاله عن «أمة الإسلام» في مدينة كليفلاند في ولاية أوهايو بتاريخ ٣ نيسان / ابريل ١٩٦٤ وكان حينها قد أسّس «منظمة المسجد الإسلامي»؛ وجرت الخطبة الأخيرة في قاعة الأودوبون في حيّ هارلم في نيويورك بتاريخ ٢٠ كانون الأول / ديسيمبر ١٩٦٤، أي قبل شهرين من مقتله. كما ارتأينا أن نعرض ردوده على بعض الأسئلة الصحافية والإذاعية والتلفزيونية.

نبذة عن حياة مالكوم اكس

ولد مالكوم في ٩ أيار (مايو) ١٩٢٥ في مدينة أوماها في ولاية نبراسكا، وكان الرابعَ بين ثمانية أبناء. كان أبوه (ايرل ليتل) قسيساً معمدانياً وناشطاً سياسياً في أكبر منظمة للسود آنذاك، وهي «الجمعية العالمية لتقدم الزنوج». وكانت حياة عائلة مالكوم عبارةً عن سلسلة من النكبات: فقد شهد الأبُ مقتلَ أربعةٍ من إخوته الستة على يد العنصريين البيض، وتعرّض لمضايقات وتهديدات من قبل العنصريين البيض بسبب نشاطاته السياسية، فرحل إلى مدينة لانسنغ في ولاية ميشيغان في العام ١٩٢٨، وبعد عدة شهور أُحرقَ منزلُ العائلة من قبل منظمة كوكلوكس كلان العنصرية، فرحلتِ العائلةُ من جديد إلى ضواحي مدينة لانسنغ.

في العام ١٩٣١ قُتل والدُ مالكوم بصورةٍ وحشيةٍ على يد العنصريين البيض، ولكنّ السلطات ادّعتْ أنّه مات دَهْساً! فَرَعَت الأمُّ أطفالها الثمانية دون مورد للرزق، ولاسيما أنّ السلطات حجبتْ عنها كلَّ الإعانات أو الحقوق المالية. وفي العام ١٩٣٩ أصيبتْ بانهيارٍ عصبيٍّ، فأُدخلتْ مصحّةً للأمراض العقلية.

عام ١٩٤١ رحل مالكوم إلى مدينة بوسطن في ولاية ماساشوسيتس حيث عمل في مسح الأحذية وغسل الصحون، ثم عمل في سكة الحديد، وانخرط في عالم الإجرام. وفي العام ١٩٤٣ رحل إلى نيويورك وعمل في بيع الساندويشات في سكة الحديد، ثم فُصل من عمله بسبب تعاطيه الكحول والمخدّرات. فعاد إلى بوسطن عام ١٩٤٥. وفي السنة التالية اعتُقِل عدةَ مراتٍ بتهمة حمل السلاح والسرقة، وحُكم عليه أخيراً بالسجن عشرَ سنوات.

في السجن أخذ مالكوم بتثقيف نفسه، وشرع بنسخ كلمات القاموس كلمةً إثر كلمة. وهناك أيضاً تعرف إلى أفكار إلايجه محمد، قائد منظمة المسلمين السود المعروفة بـ«أمة الإسلام». وبعد ستّ سنوات خرج من السجن، ومنه إلى مدينة ديترويت للعمل مع أخيه في محلٍ لبيع الأثاث. وبعد عدة أشهر حضر أحد نشاطات «أمة الإسلام» حيث خَطَب إلايجه محمد، وانضمّ رسمياً إلى منظمته، وتحوّل إلى حياة الزهد والتعلّم. كما غيَّر اسمه من «مالكوم ليتل» إلى «مالكوم اكس» (الحرف الانجليزي X)؛ وكان هذا إجراءً معهوداً من قبل المنضوين في تلك المنظمة وهو يرمز إلى الاسم الأخير الذي سُلب منهم جرّاء استعبادهم على يد البيض.

في العام ١٩٥٣ أصبح مساعداً لإمام مسجد رقم ١ في ديترويت، فإماماً لمسجد رقم ٨٨ في بوسطن، ثم تنقّل للعمل في عدة مساجد في مدن أميركية مختلفة، قبل أن يتزوّج في العام ١٩٥٨ من بيتي ساندرس. وفي العالم التالي ذهب في رحلة طويلة إلى مصر والسعودية وإيران وسوريا وغانا، والتقى بالرئيس جمال عبد الناصر، وكان من المفروض أن يزور مكة ولكنه اضطرّ إلى العودة بسبب مرضه.

عامَ ١٩٦٢ عُيّن إماماً قومياً في منظمة «أمة الإسلام». وفي العام التالي أصدر إلايجه محمد أوامر لجميع الأئمة بعدم التعليق على مقتل الرئيس الأميركيّ جون كينيدي، ولكنّ مالكوم صرّح بأنّ سلاح كينيدي قد ارتدّ إلى نحره وحصدَ ما زرعه وبأسرع ممّا توقّع هو نفسه. فعمد محمد إلى تجميد عضوية مالكوم في المنظمة، وكانت الخلافات قد نشبتْ بينهما قبل ذلك بعدة أشهر. فقدّم مالكوم استقالته من المنظمة وذهب في رحلة قام خلالها بأداء فريضة الحج. وهناك تعرّف إلى الإسلام السنّي، وكيف ينادي بالمساواة بين الأعراق، فتخلّى عن اعتقاده بأنّ البيض شياطين، وغيَّر اسمه من جديد فأصبح «الحاج مالك الشاباز». وعقب ذلك أسس منظمةً أسماها «مؤسسة المسجد الإسلاميّ»، وأخرى حملت اسمَ «منظمة اتحاد الأفارقة الأميركيين»، وأخذ يتجه بأفكاره نحو الاشتراكية محاولاً في هذه المنظمة الأخيرة أن يجد أرضيةً مشتركة للنضال تضمّ جميعَ المناضلين السود. وعلى الرغم من سعيه إلى الابتعاد عن النزاع مع «أمة الإسلام» فقد نشب بين الطرفين خصامٌ علنيٌّ فيما بعد، وأمرتْه المنظمةُ بإخلاء بيته لأنه ملْكٌ لها. وفي تلك الفترة جرت محاولةٌ لاغتياله، ثم أُحرق بيته.

بتاريخ ٢١ شباط/فبراير ١٩٦٥ اغتيل مالكوم بينما كان يلقي خطاباً في حيّ هارلم في نيويورك. وقد اغتاله أحدُ أعضاء «أمة الإسلام»، ولكنْ ليس من المؤكد أنّ المنظمة هي التي أعطت الأمرَ باغتياله.

أ.ح.ح

خطبة في الكنيسة المعمدانية الحبشية

حضرات الضيوف الكرام، والإخوة والأخوات، والأصدقاء بل والأعداء أيضاً،

بصفتي إماماً ومن أتباع المُبجّل إلايجه محمد، وهو مبعوثُ الله إلى مَنْ يسمُّوْنَ بالزنوج الأميركيين، أُعْرب عن سعادتي التامة لتلبية الدعوة للحضور إلى هذه الأمسية في الكنيسة المعمدانية الحبشية لكي (...) أعرضَ آراء المبجّل إلايجه محمد حول هذا الموضوع المُلحّ، ألا وهو: ثورة السود. لكنّ هناك أولاً بعض الأسئلة التي علينا أن نضعها أمامكم. فلمّا كانت جماهيرُ السود هنا في أميركا منخرطةً الآن في تمرّدٍ مفتوح ضد نظام الفصل العنصريّ الأميركيّ، فهل ستتوجّه هي ذاتُها إلى الاندماج العرقيّ أم إلى الانفصال الكامل؟ هل ستطالِب جماهيرُ السود المستضعفةُ هذه بالاندماج في مجتمع البِيض الذي استعبَدَهم، أم ستطالب بالانفصال الكامل عنهم؟ [...]

الذئب والنعاج

تلك هي فقط بعضُ الأسئلة السريعة التي أعتقد أنّها تستثير بعضَ الأفكار في عقولكم وفي عقلي. فكيف يستطيع من يُسمُّوْن بـ «قادة الزنوج»، والذين يَدْعون أنفسَهم «قادةً متنوِّرين»، أن يتوقعوا من النعاج السوداء الفقيرة أن تندمج في مجتمع الذئاب البيضاء المتعطشة للدماء، والتي ما انفكتْ تمتصّ دمنا ما يزيد عن أربعمئة عام هنا في أميركا؟ هل ستثور هذه النعاج السوداء أيضاً ضد «الراعي الزائف» أو القائدِ الزنجيّ المختار الشبيه بالعم توم*، وتسعى إلى الانفصال الكامل لكي ننجو من وكرِ الذئاب بدلاً من أن نندمج مع هذه الذئاب في وكرها ذاك؟ ولأننا موجودون الآن في كنيسة، وأكثرنا هنا يُقرّون في الإيمان بالله، فثمة سؤال آخر: حين يأتي «الراعي الصالح» [المسيح] هل سيَدمج نعاجَه الضالةَ منذ زمنٍ بعيد في الذئاب البيض؟ توفيقاً للكتاب المقدّس لن يدع الربُّ حين يأتي [إلى الأرض] نعاجَه تندمج في الماعز؛ ولئن لم تكن النعاجُ آمنةً بالاندماج في الماعز فإنها لن تكون آمنة بالاندماج في الذئاب. إنّ المبجّل إلايجه محمد يُعلّمنا أنْ ليس هناك شعبٌ في الأرض تنطبق عليه الصورةُ الرمزيةُ عن النعجة الضالّة في الكتاب المقدس بأكثر مما تنطبق على ما يُسمّى بالزنوج العشرين مليوناً في أميركا، كما لم يكن في التاريخ قَطُّ ذئبٌ أكثرُ شراسةً وتعطّشاً للدم من الرجل الأبيض الأميركيّ [...].

لقد نظر المسيح قبل ألفيْ عام إلى ما وراء الزمن ورأى بلاءكم وبلائي هنا اليومَ، وعَلِمَ أنّ قراراتِ الدمج العنصريّ الخادعة وقراراتِ المحكمة العليا المُخادعة سوف تهدهدكم لكي تذهبوا في سباتٍ أعمق، وعَلِمَ أنّ الوعود المخادعة للسياسيين المنافقين حول تشريعات الحقوق المدنية لن تكون مُصمَّمةً إلاّ لكي تجعلكم تتقدمون من عبوديةٍ قديمةٍ إلى عبوديةٍ عصرية. ولكنّ يسوع تنبّأ حينها حقاً بأنه عندما يأتي ايليا** بقوة الحقيقة وروحها فإنه سيعلّمكم الحقيقة، ويقودكم بالحقيقة، ويحميكم بالحقيقة، ويجعلكم أحراراً بالفعل. ويا أيها الإخوة والأخوات، ايليا ذاك الذي قال يسوع إنه سيأتي قد أتى، وهو اليوم في أميركا في شخص المبجّل إلايجه محمد [...].

الانفصال ودور الحكومة

يقول المبجّل إلايجه محمد إنّ الحل الدائم الوحيد هو الانفصالُ الكاملُ على قطعة من الأرض يُمْكننا أن نقول إنها تخصّنا. ولهذا يقول إنّ من الممكن حلّ هذه المشكلة، وحلُّها إلى الأبد، بمجرّد إعادتنا إلى وطننا الأصليّ أو إلى شعبنا، ولكنّ على هذه الحكومة أن تؤمّن لنا الانتقال بالإضافة إلى كل ما نحتاجه لكي نتمكن من البدء من جديد في بلدنا الخاصّ بنا. على هذه الحكومة أن تزوّدنا بكل ما نحتاجه من آلاتٍ وموادّ وتمويلٍ يكفينا عشرين أو خمسةً وعشرين عاماً حتى نصبح شعباً مستقلاً وأمّةً مستقلةً على أرضنا الخاصة بنا. وهو يقول إنه إذا كانت الحكومة الأميركيةُ خائفةً من إعادتنا إلى بلادنا وإلى شعبنا، فعليها أن تَحْجز لنا منطقةً مفصولةً هنا في النصف الغربيّ من الكرة الأرضية، حيث يستطيع العِرْقان العيشَ منفصليْن واحدهما عن الآخر؛ إذ إنه لا يمكننا العيشُ بسلامٍ ما دمنا معاً. ويقول

* - العم توم: الشخصية الرئيسية في الرواية الأميركية الشهيرة **كوخ العم توم** لمؤلفتها هارييت بيشرْ ستو، ويُعتبر العمّ توم بالنسبة إلى السود الأميركيين رمزاً للخنوع والطاعة العمياء. (المترجم)

** - نلفت نظر القرّاء إلى أنّ الصورة الإنجليزية لاسم إيليا هي Elijah، وهذا هو اسم إلايجه محمد، قائد حركة المسلمين السود آنذاك. (م)

المبجّل إلايجه محمد إنّ مساحة هذه المنطقة يمكن أن تُحدَّد بناءً على تعدادنا السكانيّ: فإذا كان سُبْعُ سكّان هذا البلد من السود كان عليكم إعطاؤنا سُبْعَ الأرض، سُبْعَ البلد. ونحنُ بهذا لا نطلب الكثيرَ، إذ إننا قد عملنا للرجل [الأبيض] أربعمئة عام. ويقول كذلك إنّها يجب ألاّ تكون في الصحراء، بل حيث يكون المطرُ الغزيرُ والكثيرُ من الثروات المعدنية. فنحن نريد أرضاً خصبة ومنتِجة يُمْكننا أن نزرعها بحيث تزوِّد شعبَنا بالغذاء والكساء والمسكن [...].

وخلاصةً لما سلف فإنني أكرّر: لا نريد أيّ شكل من الاندماج في هذا العرق الشرير من الشياطين. ويقول [إلايجه محمد] أيضاً إنه يجب ألاّ يتوقع أحدٌ منا أن نغادر أميركا صِفْر اليديْن. فبعد أربعمئة عام من العبودية هناك دفعاتٌ مستحقة لنا: فاتورةٌ هم [البيضُ] مَدينون لنا بها ويجب أن تُدفع. فإذا كانت حكومةُ أميركا نادمةً حقاً على ذنوبها ضد شعبنا وتريد أن تكفّر عن ذنوبها بإعطائنا حصّتَنا الحقيقيةَ من الأرض والثروات، استطاعت أميركا أن تُنقذ نفسها؛ ولكنْ إذا انتظرتْ أن يأتي الله ويُجْبرَها على إجراء تسويةٍ عادلة، فإنّ الله سيأخذ هذه القارة بكاملها من الرجل الأبيض، ويقول الكتابُ المقدّسُ إنّ الله حينها سيعطي المملكة لمن يشاء!

بلاغ إلى القاعدة الشعبية

ديترويت ـ ١٩٦٣

نريد أن نتحدث معكم حديثاً من غير تكلُّف، حديثاً عملياً وبلغةٍ يستطيع أيٌّ كان أن يفهمها بسهولة. لقد اتفقنا جميعاً في هذه الليلة (...) على أنّ لدى أميركا مشكلةً خطيرةً جداً. وليست أميركا وحدها مَنْ يُعاني مشكلةً، بل شعبنا أيضاً لديه مشكلة خطيرة جداً. إنّ مشكلة أميركا هي نحن؛ والسبب الوحيد في أنّ لديها مشكلة هو أنها لا تريدنا هنا[...].

نحن جميعاً رجالٌ سود، أو ما يسمّى بالزنوج. نحن كلنا مواطنون من الدرجة الثانية، وعبيد سابقون. أنتَ لست سوى عبد سابق. أنت لا ترغب في سماع هذا، ولكنْ ماذا تراك تكون غيرَ ذلك؟ أنتم عبيد سابقون. أنتم لم تأتوا إلى هنا على متن «ماي فلاور»* بل على متن سفينة عبيد، مغلَّلين بالسلاسل مثلَ حصانٍ أو بقرةٍ أو دجاجة. ولقد جُلِبتُم بواسطة الناس الذين أتوْا على متن «ماي فلاور». لقد جُلبتم إلى هنا بواسطة ما يُسمّى بالحجّاج** أو «الآباء المؤسِّسين»!

نحن لدينا عدو مشترك: لدينا مُضطهِدٌ مشترك، مُستغِلٌّ مشترك، مميِّزٌ عنصريٌّ مشترك. ولكنْ ما إنْ نتبيّن كلُّنا أنّ لدينا عدواً مشتركاً فسنقوم بالاتحاد على أساس ما هو مشترك بيننا. وأهمُّ ما نشترك فيه هو ذلك العدو ـ الرجل الأبيض. فهو عدوٌّ لنا جميعاً. أنا أعلم أنّ بعضَكم يعتقد أنّ بعضهم [البيض] ليسوا أعداء لنا، ولكنّ الزمن سيكشف [خطلَ هذا الاعتقاد].

في باندونغ، وأعتقد أنّ ذلك كان في العام ١٩٥٤، حدث أولُ اجتماعٍ توحيديّ منذ قرون للشعوب السوداء. وعندما تَدرسون ما حدث في مؤتمر باندونغ، ونتائج مؤتمر باندونغ، فإنّ ذلك سيشكل نموذجاً للنهج الذي نستطيع أنا وأنتم أن نتّبعه من أجل حلّ مشكلتنا. ففي باندونغ اجتمعتْ كلُّ الأمم: الشعوب السمراء من أفريقيا وآسيا، وكان بعضهم بوذيين، وبعضهم مسلمين، وبعضهم مسيحيين، وبعضهم كونفوشِسْتيّين، وبعضهم ملحدين، وبعضهم كانوا شيوعيين، وبعضهم اشتراكيين، وبعضهم رأسماليين. ولكنهم تآزروا رغم اختلافاتهم الاقتصادية والسياسية، وكانوا كلهم سوداً أو سمراً أو حمراً أو صفراً [...].

العنف واللاعنف

أرغب في أن أطرح بضع ملاحظات تتعلق بالفرق ما بين ثورة السود وثورة الزنوج. فهل هما شيء واحد؟ وإنْ لم يكونا كذلك فما هو الفرق بينهما؟ أولاً، ما هي الثورة؟ إنني أميل إلى الاعتقاد أحياناً أنّ الكثيرين من أفراد شعبنا يستخدمون كلمة «ثورة» برخاوة ودون تمعّنٍ دقيقٍ في ما تعنيه هذه الكلمة فعلاً وما هي خصائصها

١ ـ «Mayflower» (زهرة مايو): اسم السفينة التي أتى على متنها المهاجرون الأوائل من بريطانيا عامَ ١٦٢٠. (م)

٢ ـ يشير الأميركيون في تاريخهم إلى المستعمرين الأوائل بوصفهم «حجّاجاً» وهاربين من الاضطهاد الدينيّ في بريطانيا. (م)

التاريخية. فحين تَدْرس الطبيعةَ التاريخيةَ للثورات، ودوافعَ الثورات، وأهدافَ الثورات، ونتائجَ الثورات، والأساليبَ التي اتُّبِعَتْ في الثورات، فإنّك قد تغيِّر من استخدامك لهذه الكلمة، وربما ابتكرتَ برنامجاً آخر، أو غيّرتَ هدفَكَ، أو غيّرتَ رأيَكَ.

أُنظرْ إلى الثورة الأميركية عام ١٧٧٦. لأيّ سبب كانت تلك الثورة؟ لأجل الأرض. لماذا أرادوا الأرض؟ لأجل الاستقلال. وكيف تم تنفيذها؟ بسفك الدماء (...). والثورة الفرنسية، علامَ استندتْ؟ هناك ثار المحرومون من الأرض ضد مالكي الأرض. وما كان هدفُها؟ الأرض. وكيف حصلوا عليها؟ بسفك الدماء. لم يكن هناك اعتبارٌ للعواطف، ولم تكن هناك تسويات، ولم تكن هناك مفاوضات. ها أنا ذا أُخْبركم: أنتم لا تعرفون ما هي الثورة، لأنكم عندما تكتشفون ما هي فَستَرْجعون إلى أزقّتكم وتتنحَّوْن عن الطريق!

والثورة الروسية، علامَ استندتْ؟ على الأرض؛ المحرومون من الأرض ضد مالكي الأرض. وكيف حققوا ثورتهم؟ بسفك الدماء. لم تحدث ثورةٌ من قبلُ بدون سفك دماء. وأنتم تخافون أن تَنْزفوا. ها أنا ذا أقول: إنكم تخافون أن تَنْزفوا!

حين أرسلكم الرجلُ الأبيض إلى كوريا [للحرب] نَزَفتم. وأرسلكم إلى ألمانيا فنَزَفتم، وأرسلكم إلى جنوبي المحيط الهادي لقتال اليابانيين فنزفتم. أنتم تنزفون من أجل الشعب الأبيض! ولكن حين تَرَوْن كنائسكم تُفجَّر بالقنابل، وتُقتَلُ بناتٌ سوداواتٌ صغيرات، فإنكم لا تقدِّمون أيّ نقطةِ دم! أنتم تنزفون حين يقول الرجلُ الأبيض: «انزفوا»، وأنتم تَعضّون عندما يقول الرجلُ الأبيض: «عُضّوا»، وأنتم تَنبحون عندما يقول الرجلُ الأبيض «انبحوا». أنا أكره أن أقول ذلك عنّا، ولكنّ تلك هي الحقيقة. كيف لكم أن تكونوا لاعنفيين في الميسيسيبي، وقد كنتم عُنفيين في كوريا؟ كيف يمكنكم أن تبرروا لاعنفَكُمْ في الميسيسيبي وألاباما عندما تُفجَّر كنائسُكم بالقنابل وتُقتل بناتكم الصغيرات، وتكونون عنيفين في الوقت ذاته مع هتلر وتوجو* وأشخاصٍ آخرين قد لا تعرفونهم قطّ؟!

إذا كان العنفُ خطأً في أميركا، فهو خطأ أيضاً في الخارج. وإذا كان من الخطإ أن تكون عنيفاً في الدفاع عن النساء السوداوات والأطفال السود والرجال السود، فإنّ من الخطإ أن تجنّدنا أميركا وتجعلنا عنيفين في الخارج دفاعاً عنها. وإذا كان يحقّ لأميركا أن تجنِّدنا وتعلّمنا كيف نكون عنيفين دفاعاً عنها، فإنه يحقّ لكم ولي أن نفعل كلّ ما هو ضروريٌّ لكي ندافع عن شعبنا هنا في هذا البلد!

[ويَذْكر مالكوم بعد ذلك الثورة الصينية، والكينية، والجزائرية، وكلّها انتصرْت، بحسب تأكيده، بالثورة والدم، ثم يقول:] لقد ذكرتُ تلك الثورات المختلفة، أيّها الإخوة والأخوات، لأبيّن لكم أنْ ليس ثمة ثورةٌ سلميةٌ، وليس ثمة ثورةٌ تدير فيها الخدَّ الآخر**. لا وجود لشيء يُدعى ثورةً لاعنفيةً، والنوعُ اللاعنفيُّ الوحيدُ من الثورات هو ثورة الزنوج؛ الثورة الوحيدة التي تهدف إلى أن تحب عدوَّك هي ثورة الزنوج! إنّها الثورة الوحيدة التي هدفُها الاندماجُ العِرقيُّ على طاولات المطاعم، والاندماجُ العِرقيُّ في المسارح، والاندماجُ العِرقيُّ في الحدائق، والاندماجُ العِرْقيُّ في المراحيض العامة. لك أن تجلس إلى جوار شخصٍ أبيض - في مرحاض! ولكنّ هذا الأمر ليس بثورة؛ بل إنّ الثورة تستند إلى الأرض، والأرضُ هي أساس كلِّ استقلالٍ؛ الأرضُ هي أساس الحرية والعدالة والمساواة [...].

كلّ الثورات التي تَحْدث الآن في آسيا وافريقيا مستندةٌ إلى ماذا؟ إلى قوميّة السود. إنّ الثائر لَهُوَ قوميٌّ أسود، لأنّه يريد بناءَ أمّة. لقد كنتُ أقرأ كلاماً جميلاً للقسّ كليج، وفيه أشار إلى أنه لم يستطع الاجتماعَ مع أحدٍ في المدينة لأنّ الناس خافوا من أن يرتبط اسمُهم بالقوميين السود. إذا كنتَ خائفاً من قومية السود فأنت خائف من الثورة، وإذا كنتَ تحب الثورة فأنت تحب قومية السود.

زنجيّ المنزل وزنجيّ الحقل

ولكي نفهم ذلك علينا أن نعود إلى ما ذكره المتحدث الشاب الذي سبقني، عن زنجيّ المنزل وزنجيّ الحقل أثناء فترة العبودية. فقد كان هناك نوعان من العبيد: زنوج المنازل وزنوج الحقول. أمّا زنوج المنازل فقد كانوا يعيشون في المنازل مع الأسياد، وكانوا يلبسون ملابسَ جيدةً ويأكلون طعاماً جيداً لأنهم كانوا يأكلون من طعام السيِّد، أيْ ممّا يتبقّى منه. وكانوا يعيشون في علّيّة البيت أو في الطابق التحتانيّ، ولكنهم كانوا يعيشون - مع ذلك - بالقرب من السيد؛ وقد أحبّوا السيد أكثرَ مما كان السيدُ يحب نفسه. وكانوا على استعداد للتضحية بحياتهم لإنقاذ

* - هايدكي توجو: جنرال ياباني شغل منصبَ رئيس الوزراء أثناء الحرب العالمية الثانية ما بين العامين ١٩٤١ و١٩٤٤. (م)

** - إشارة إلى قول السيد المسيح «مَنْ ضَرَبَكَ على خدّك الأيمن فأَدِرْ له الأيسر» (العهد الجديد/متّى ٥: ٣٩). وهو في الوقت ذاته تعريضٌ بأسلوب مارتن لوثر كنغ اللاعنفيّ. (م)

منزل السيد، بل كانوا في ذلك أسرع من السيد نفسه. وإذا قال السيد: «لدينا منزلٌ جيدٌ هنا» كان زنجيُّ المنزل يقول: «نعم لدينا منزل جيد هنا». وكلما قال السيد: «نحن»، قال العبد: «نحن» (...). إذا نَشَبَت النيرانُ في منزل السيد كان زنجيُّ المنزل يكافح الحريق بأقوى مما يكافح السيدُ نفسه. وإذا مرض السيد كان زنجيّ المنزل يقول: «ما الأمر أيها السيد، أنحن مرضى؟». نحن مرضى! لقد تماهى الزنجيُّ مع السيِّد بأكثر مما تماهى السيدُ مع نفسه! وإذا أتيتَ زنجيَّ المنزل وقلتَ له: «هيّا نهربْ، فَلْنَنْجُ بأنفسنا، فلننفصلْ [عن البيض]» نَظَرَ إليك وقال: «ويْحَكَ يا رجل! هل جُنِنْتَ؟ ماذا تعني بالانفصال؟ وأين نجد بيتاً أفضل من هذا؟ أين يمكنني أن ألبس ملابس خيراً من هذه؟ وأين أستطيع أن آكل طعاماً خيراً من هذا؟». هكذا كان زنجيّ المنزل house negro، وكان يُدعى في تلك الأيام «عبدَ المنزل» house nig-ger [أزدراءً]، وهذا ما ندعوهم به اليوم، لأنه ما زال بيننا عبيدُ منازل يتراكضون مِنْ حولنا!

زنجيُّ المنزل العَصريُّ هذا يحبّ سيده، ويرغب في أن يعيش بالقرب منه، وهو على استعداد لأن يدفع ثمنَ منزلٍ بثلاثة أضعافِ ما يستحقه لكي يعيش بالقرب من سيده، وبعد ذلك يأخذ بالتباهي: «أنا الزنجيّ الوحيد الذي يعيش هنا» و«أنا الزنجيّ الوحيد في عملي» و«أنا الزنجيّ الوحيد في تلك المدرسة». لكنّكَ لستَ إلاّ زنجيّ منزل*! وإذا أتاك أحدُهم الآن وقال «هيّا ننفصلْ [عن الأسياد البيض]» قلتَ ما كان يقوله زنجيُّ المنزل في مزارع العبيد: «وماذا تراك تعني بالانفصال؟ عن أميركا، هذا الرجلِ الأبيضِ الطيبِ؟ وأين لك أن تحصل لي على عمل أفضل من عملي هنا؟» ولقُلتَ أيضاً: «أنا لم أترك خلفي شيئاً في افريقيا». بلى، يا صاحِ، لقد تركتَ عقلك هناك!

في مزرعة العبيد ذاتها كان هناك أيضاً زنجيُّ الحقل field negro. وزنوج الحقول هؤلاء كانوا الجماهير. وكانوا يفوقون دوماً زنوج المنازل. كان زنوج الحقول يَلْقون العذاب، ويأكلون بقايا الطعام (...). حين تشبّ النيران في منزل السيد، لم يكونوا يحاولون إطفاء اللهب، بل كانوا يصلّون لكي تهبّ الرياح. وعندما يمرض السيد، كان زنجيُّ الحقل يصلي لموته، وإذا أتى أحدهم زنجيُّ الحقل وقال له «هيّا نهربْ، فلننفصلْ [عن البيض]» فإنه لم يكن ليقول «إلى أين نذهب؟» بل: «إن أيَّ مكانٍ لهُوَ أفضلُ من هنا». ونحن لدينا زنوجُ حقولٍ في أميركا اليوم. أنا زنجيُّ حقلٍ، الجماهيرُ زنوجُ حقولٍ، وعندما يرون بيتَ الرجل [الأبيض] يشتعل لا تسمعهم يقولون: «حكومتُنا» بل يقولون «الحكومة». تخيّلوا زنجياً يقول: «حكومتنا»! بل قد سمعتُ أحدهم يقول: «رجالُنا روّاد الفضاء». هذا الزنجيُّ لا يسمحون له بالاقتراب من المصنع لكنه يقول مع ذلك: «رجالُنا روّاد الفضاء»! ويقول: «بَحْريّتُنا our navy» ـ إنّ هذا الزنجي قد فقد عقله؛ أنه لزنجيٌّ مجنون.

وكما استخدم سيدُ العبيد في تلك الأيام زنجيَّ المنزل، العمُّ توم، لضبط زنوج الحقلِ، فإنّ سيد العبيد ذاته في هذا العصر يمتلك زنوجاً ليسوا إلاّ أعمامَ توم عصريين، أعمامَ توم القرنِ العشرين، وغايتُهم إبقاؤنا تحت الرقابة، وإبقاؤنا تحت السيطرة، وإبقاؤنا سلبيين وسِلْميين ولاعنفيين. إنّ العم توم هو الذي جعلكم لاعنفيين. إنّ الأمر لَيُشبه الذهابَ إلى طبيب الأسنان: الطبيب يريد اقتلاع سنّك، فتبدأ أنتَ بمقاومته حين يبدأ بالشدّ، فَيَحقن شيئاً في فكّكَ يُدعى نوفوكين [وهومخدِّر موضعيّ] ليحملك على الاعتقاد بأنّه لا يفعل بك شيئاً، فتجلس هناك، وتعاني ـ بسلام ـ لأن كلَّ ذلك النوفوكين يسري في فكّك. الدم يجري على عرْض وجهك وأنت لا تعلم ما يحدث، لأنّ ثمّة مَنْ لَقّنَكَ أن تعاني بسلام!

إنّ الرجل الأبيض لَيَفعلُ بكم في الشوارع الأمرَ عينه عندما يريد أن يضلّلكم ويستغلّكم دون أن يخشى مقاومتكم. ولكي يفعل ذلك يأتيكم بالأعمام توم، أولئك الشيوخِ المتدينين، لكي يعلّموكم ويعلّموني أن نعاني بسلام، تماماً مثل النوفوكين [...].

ليس هناك في كتابنا، القرآن الكريم، شيءٌ يعلّمنا أن نُعاني بسلام. بل إنّ ديننا لَيُعلّمُنا أن نكون أذكياء، وأن نكون مسالمين، وأن نكون صالحين، وأن نطيع القوانين، وأن نحترم كل الناس... ولكنْ إذا مسّكَ أحدُهُم، أَرْسِلْهُ إلى المقبرة! إنّ ديننا دينٌ جيِّد، إنّه دين الأيام السالفة الذي كانت أمي وكان أبي يتحدثان عنه: العيْن بالعيْن، والسنّ بالسنّ، والرأسُ بالرأس، والنَّفْسُ بالنفس**. إنّ ذلك لدينٌ جيّدٌ حقاً، وليس ثمة مَنْ يمتعض من تعليم مثل هذا الدين سوى ذنبٍ يعتزم أن يجعلك وجبةً له!

هذا هو واقع الحال مع الرجل الأبيض في أميركا. إنه ذئب ـ وإنكم لَنِعاجٌ. وكلّما علّمكم وعلّمَني راعٍ أو

* ـ يلاحَظُ أسلوبُ «الالتفات» هنا في خطاب مالكوم اكس. (م)

** ـ ورد في الآية الخامسة من سورة المائدة من القرآن الكريم، وبالإشارة إلى التوراة، ما يلي: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ، وَالعَيْنَ بِالعَيْنِ، وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ، وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ، وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ...﴾. (م)

قسٌ ألاّ نهرب من الرجل الأبيض، وألاّ نقاتل الرجل الأبيض في الوقت ذاته، فإنه يخونني ويخونكم. لا تهدروا حياتكم هباءً، بل حافظوا عليها، فإنّها أثمن شيء لديكم. ولئن كان عليكم أن تضحّوا بها فلتكنْ نَفْساً بنَفْسٍ! [...].

تآمر قادة اللاعنف

أرغب في أن أشير سريعاً إلى أمرٍ آخر، وهو الوسيلة التي يستخدمها الرجلُ الأبيض، وكيف يستخدم «الأسلحة الفتّاكة» أو قادةَ الزنوج ضد ثورة الزنوج. إنّ هؤلاء القادة ليسوا جزءاً من ثورة الزنوج، بل هم يُستخدمون ضدّها. فعندما أخفق مارتن لوثر كنغ الابنِ في دمج مدينة ألبني في ولاية جورجيا عِرْقياً وَصَلَ نضالُ حركة الحقوق المدنية في أميركا إلى أدنى مستوياته، وأفلس كنغ كقائد تقريباً، وَوَقَعَ «مؤتمرُ القيادة المسيحية الجنوبية» في ضائقة مالية (...). وغدا قادةٌ زنوجٌ آخرون من حركة الحقوق المدنية، ممن يُزْعَم أنهم ذوو مكانة على المستوى القوميّ، أوثاناً محطمة، وراحوا يَفْقدون هيبتهم وتأثيرهم، وأخذ قادةُ الزنوج في الأحياء الشعبية يثيرون الجماهير في أجزاء كثيرة من البلاد (...)؛ وهذا ما لم يفعله قادةُ الزنوج «ذوو المكانة على المستوى القوميّ»؛ إنّ هؤلاء القادة يسيطرون عليكم ولكنهم لم يحرّضوكم أو يستثيروكم أبداً؛ إنهم يسيطرون عليكم ويحتوونكم ولقد أبقوكم في مزرعة العبيد!

ما إنْ أخفق كنغ في بيرمنجهام، حتى نزل الزنوج إلى الشوارع، ثم ذهب إلى كاليفورنيا للمشاركة في مسيرة حاشدة، وجمع تبرعاتٍ بلغت ألوفاً من الدولارات لا أعلم مقدارها، ثم ذهب إلى ديترويت وأقام مسيرة أخرى وجمع ألوفاً أخرى من الدولارات. تذكّروا أنه بعد هذه المسيرة مباشرةً قام راي ويلكنز بمهاجمة كنغ واتهمه هو و«مجلس المساواة العِرقية» بإثارة المشاكل في كل مكان ومن ثمَّ حَمْلِ «المؤسسة القومية لتقدُّم الملوّنين» على إخراجهم من السجن وصرفِ الأموال الطائلة لهذا الغرض؛ ثم اتُّهم كنغ ومنظمتُهُ بأنهم يجمعون التبرعات ولا يصرفونها في أعمال النضال. لقد حدث هذا وأستطيع أن أقدِّم لكم أدلّةً موثّقة من الصحف. فقد بدأ روي بمهاجمة كنغ، وأخذ كنغ بمهاجمة روي، ثم قام فارمر بمهاجمتهما كليْهما. وما إنْ أخذ قادة الزنوج هؤلاء «ذوو المكانة على المستوى القوميّ» بمهاجمة واحدهم الآخر حتى راحوا يفقدون سيطرتهم على جماهير الزنوج.

نزل الزنوج إلى الشوارع، وأخذوا يتحدثون عن الذهاب إلى واشنطن. وفي ذلك الوقت كانت بيرمنجهام قد انفجرتْ وانفجر الزنوج في بيرمنجهام أيضاً؛ تذكروا ذلك!(...) وحينها أرسل [الرئيس] كينيدي جنوداً إلى بيرمنجهام، ثم ظهر على شاشة التلفزيون وقال: «هذه قضية أخلاقية» وقال إنه سيقدِّم تشريعاً للحقوق المدنية. وحين ذُكر تشريعُ الحقوق المدنية وبدأ العنصريون الجنوبيون يتحدثون عن عزمهم على مقاطعة التشريع أو تعطيله، بدأ الزنوج يتحدثون... عن ماذا؟ عن أنهم سيسيرون إلى واشنطن، ويسيرون إلى الكونغرس ليعطلوه ويمنعوا الحكومةَ من العمل. بل إنهم تحدّثوا عن عزمهم على الذهاب إلى المطار والاستلقاء على المدرّجات ومنع الطائرات من الهبوط. ها أنا ذا أخبركم بما كانوا يتحدثون عنه. لقد كانت تلك ثورةً حقيقية؛ تلك كانت ثورةَ السود [الحقيقية].

لقد نزلت القاعدة الشعبية إلى الشوارع، وأخافت الرجلَ الأبيضَ خوفاً مميتاً، وأخافتْ هيكلَ السلطة البيضاء في واشنطن خوفاً مميتاً. لقد كنتُ هناك وشهدتُ الأمورَ بأمّ العيْن. وعندما علموا أنّ قوة السود الساحقة قادمةٌ إلى واشنطن، قاموا بدعوة ويلكنز ودعوا راندولف وقادةَ الزنوج أولئك الذين «تحترمونهم»

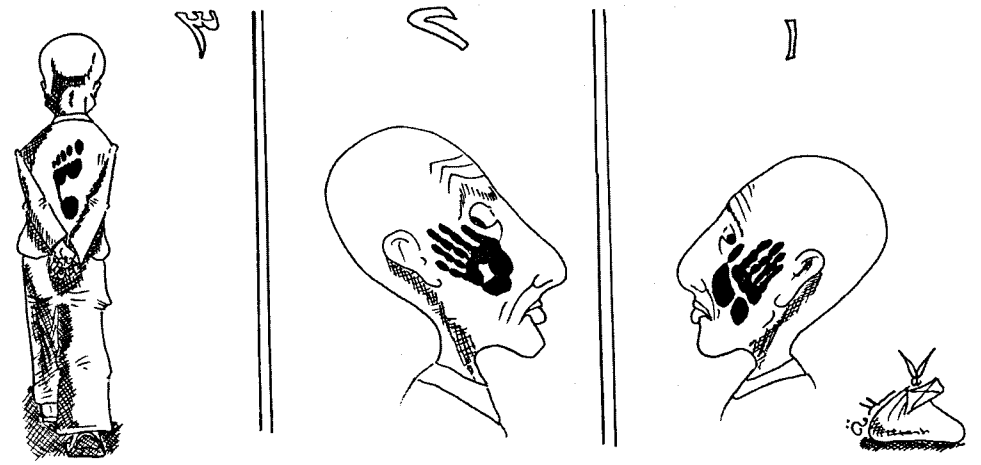

وقالوا لهم: «أوْقِفُوا هذا». وقال كينيدي «انظروا، أنتم جميعاً تَنْحون بالأمور منحًى خطيراً»، وعندها قال العم توم العجوز: «يا سيادة الرئيس، أنا لا أستطيع إيقاف ما يحدث، لأنني لست أنا مَنْ بدأه». ها أنا أخبركم بما قالوه. لقد قال توم العجوز «أنا لستُ مشاركاً في الأمر أصلاً، وأنا لستُ بالتأكيد على رأس التحركات»، وقال: «هؤلاء الزنوج يفعلون ما يحلو لهم، وهم يتقدموننا». وحينها قال ذلك الثعلبُ الداهيةُ [كينيدي]: «اذا كنتم جميعاً غيرَ مشاركين في الأمر، فأنا سأُدخلكم فيه، بل أنا سأضعكم على رأسه، وسأؤيده وأرحّب به، وأدعمه وأنضمُّ إليه»!

ولم تمض ساعاتٌ حتى عقدوا اجتماعاً في مدينة نيويورك، وفي فندق كارلايل الذي تملكه عائلةُ كينيدي... وهناك قامت جمعيةٌ خيريةٌ يرأسها رجلٌ أبيض يدعى ستيفن كوريير بدعوة كل كبار قادة حركة الحقوق المدنية إلى الاجتماع في فندق كارلايل، وقال لهم: «إنكم بشجاركم تدمِّرون حركة الحقوق المدنية، ولأنكم تتشاجرون بسبب المال الذي يقدمه التحرريون البيضُ فلنشكلْ ما يسمّى بالمجلس المتّحد لقيادة حركة الحقوق المدنية. دعونا نشكلْ هذا المجلس ونجعل كلَّ فِرَقِ حركة الحقوق المدنية تنضوي تحته، وسنستخدمه لجمع التمويل». ولكنْ دعوني أُبيّنْ لكم شدّة مكر الرجل الأبيض: فما إنْ شكّلوا ذلك المجلس حتى انتخبوا ويتني يونغ رئيساً، ومَنْ تراه كان الرئيس الآخر في اعتقادكم؟ لم يكن إلاّ ستيفن كوريير، ذلك الرجل الأبيض المليونير(...). ومارتن لوثر كنغ يعرف أنّ ذلك هو ما حدث، وكل شخص من الستة الكبار في قيادة السود يعرف أنّ ذلك هو ما قد حدث.

ما إنْ تمَّ تشكيلُ المجلس، والرجلُ الأبيضُ على رأسه، حتى قام هذا بأغداق الوعود وقدّم ٨٠٠ ألف دولار لكي يقتسمها الستةُ الكبار فيما بينهم، وأخبرهم أنه بعد القيام بالمسيرة في واشنطن سيقدِّم لهم ٧٠٠ ألف دولار أخرى. والمجموع مليون ونصف مليون دولار ـ لكي يقتسمها القادةُ الذين كنتم تَتْبعونهم وتذهبون إلى السجون من أجلهم وتذرفون دموعَ التماسيح من أجلهم!(...).

وعندما تم تنظيم الأوضاع، أمَّن لهم الرجلُ الأبيض أفضلَ الخبراء في العلاقات العامة، ووضع كافة وسائل الإعلام في طول البلاد وعرضها تحت تصرفهم، فأخذتْ تُبرز هؤلاء القادةَ الستةَ الكبارَ بوصفهم قادةَ المسيرة، مع أنهم في الأصل لم يكونوا مجرَّد مشاركين فيها!(...). وأول حركة قام بها البيضُ بعد الاستيلاء على المسيرة هي دعوة والتر روثر ـ وهو رجل أبيض ـ ودعوةُ قسيسٍ وحاخامٍ ومبشِّرٍ عجوزٍ أبيض، نعم: مبشّر عجوز أبيض. لقد دعوا العناصر البيضاء عينها التي وضعتْ كينيدي في السلطة ـ من الحركات العمالية والكاثوليك واليهود والبروتستانت التحرريين؛ وهذه الزمرة التي وضعتْ كينيدي في السلطة هي عينها التي انضمتْ إلى المسيرة في واشنطن.

إنّ الأمر لَيُشبهُ أن تكون لديك قهوةٌ شديدةُ السواد، أي شديدة القوة. فماذا تفعل؟ تقوم بمزجها ببعض الحليب، فتُضْعِفها. ولكنّك إذا صَبَبْتَ فيها حليباً أكثر مما ينبغي، فلن تعرف أنّ ما تشربه قهوةٌ. فقد كانت ساخنةً فأصبحتْ باردة، وكانت قويةً فأصبحتْ ضعيفة، وكانت توقظك في السابق وتنشّطك ولكنّها الآن تدفعك إلى النوم! وهذا ما فعلوه بالمسيرة إلى واشنطن: لقد انضمّوا اليها، وهم لم يدمجوها بل اخترقوها. انضمّوا إليها وأصبحوا جزءاً منها واستولوا عليها، ففقدتْ ميزتها القتالية وتوقفتْ عن أن تكون غاضبة، وتوقفتْ عن أن تكون حارّة، وتوقفتْ عن أن تكون غير مساومة. بل توقفتْ عن أن تكون مجرّد مسيرة، وأصبحتْ نزهة أو سيركاً... ولقد قمتم بسيرك كهذا ههنا في ديترويت ـ وشاهدتُه على التلفزيون ـ وكان يقوده مهرِّجون بيضٌ ومهرِّجون سود. أنا أعلم أنكم لا تحبون سماعَ ما أقوله، ولكنني سأقوله على أيّ حال، لأنني أستطيع إثبات أقوالي. وإذا اعتقدتم أنّ ما أقوله غير صحيح فأَحْضِروا مارتن لوثر كنغ وفيليب راندولف وجيمس فارمر والثلاثةَ الآخرين، ولتروْا بأنفسكم إنْ كان باستطاعتهم إنكارُ ذلك أمام الميكروفون.

جوائز الأوسكار

لا، لقد كانت خيانةً، كانت استيلاءً. وعندما جاء جايمس بالدوين* من باريس لم يسمحوا له بالحديث، لأنه لم يكن بإمكانهم إلزامُهُ بالنص. لقد سيطروا على المسيرة بشدة، فأمْلَوْا على أولئك الزنوج الوقتَ الذي يُمْكنهم فيه دخولُ المدينة، وكيفيةَ الوصول، وأماكنَ الوقوف، واليافطاتِ التي سيحملونها، والأغانيَ التي سيغنونها، والخطبَ التي يمكنهم إلقاؤها، والخطبَ التي لا يمكنهم إلقاؤها. وبعد ذلك أخبروهم بأنّ عليهم الخروجَ من المدينة قبل مغيب الشمس. وقد غادر كلُّ الأعمام توم أولئك المدينةَ قبلَ غروب الشمس فعلاً(...). لقد كانت المسيرةُ عبارةً عن سيرك، أو عرضٍ تمثيليٍّ يتفوق على كلّ ما تُنتجه هوليوود على الإطلاق. كانت فيلمَ السنة

* ـ شاعر وكاتب مسرحيّ وكاتب مقالات، وُلد عام ١٩٢٧ في هارلم في نيويورك، وتُوفِّي عام ١٩٨٧. (م)

المميَّز، ومن الواجب إعطاء والتر روثر وأولئك الشياطين الثلاثة الآخرين [البيض] جائزةَ الأوسكار عن أحسن تمثيل، لأنهم مثّلوا دورَ محبّي الزنوج وأقنعوا به عدداً كبيراً من الزنوج. وأما القادة الزنوج الستة فيجب أن يحصلوا هم أيضاً على جائزة الأوسكار، ولكنْ عن الأدوار الثانوية!

إمّا ورقة الاقتراع وإمّا الرصاصة

كليڤلاند ـ ٣ نيسان/ابريل ١٩٦٤

[...]

إن السؤال المطروح اليوم، وكما أفهمه، هو «ثورة الزنوج وإلى أين نذهب من هنا؟» أو «ماذا بعد؟». وبطريقتي المتواضعة في فهم هذا السؤال فإنّ الأمر يدفعنا إمّا إلى ورقة الاقتراع وإمّا إلى الرصاصة[...].

كلنا عانيْنا في هذا البلد القمعَ السياسيّ على يد الرجل الأبيض، والاستغلالَ الاقتصاديّ على يد الرجل الأبيض، والتفسخَ الاجتماعيّ على يد الرجل الأبيض. وإذْ أتحدث على هذا النحو فإنني لا أعني أننا ضد البيض، بل يعني أننا ضد الاستغلال وضد التفسخ الاجتماعيّ وضد القمع. وإذا أرادنا الرجلُ الأبيضُ ألاّ نكون ضده، فعليه التوقف عن قمعنا واستغلالنا. وسواء أمسيحيّين كنّا أم مسلمين أم قوميين أم لاأدريين أم ملحدين، فإنّ علينا أولاً أن نتعلم أن ننسى خلافاتنا. ولئن كنّا على خلاف فلنختلفْ في السرِّ، وحين نظهر على الملإ فيجب ألاّ يكون لدينا ما نختلف حوله على الإطلاق إلى أن نُنهي خلافَنا مع الرجل [الأبيض]. وإذا كان في استطاعة الرئيس الراحل كينيدي أن يلتقي بخروتشيف ويتبادلا القمحَ، فإنّ بيننا بالتأكيد ما هو أعظم ممّا كان بينهما [...].

الجمهوريون والديموقراطيون

أنا لستُ سياسياً ولا مجرّد تلميذٍ في السياسة (...). أنا لستُ من أنصار الحزب الديموقراطيّ، ولا من أنصار الحزب الجمهوريّ، بل إنني لا أعتبر نفسي أمريكياً. فلو كنّا أنا وأنتم أميركيين لما كانت ثمة أيةُ مشكلة. أولئك المتحدرون من أوروبا الوسطى أو الشرقية الذين نزلوا لتوّهم من السفينة [زمنَ الهجرة إلى العالم الجديد] أميركيون. والمتحدّرون من بولندا أميركيون. والمهاجرون الإيطاليون أميركيون. كل شيء يأتي من أوروبا، كل شيء أزرق العيْنين، يغدو أميركياً. وعلى الرغم من وجودنا العريق أنا وأنتم في هذه البلاد فإننا ما زلنا غير أميركيين بعد!

حسناً، أنا رجل لا أؤمن بخداع النفس. لن أجلس أمام المائدة وأراقبكَ تأكل دون أن يكون ثمة شيء في صحني، ثم أدّعي أنّني متغدٍّ أو متعشٍّ! [...]. لا أنا لست أميركياً، بل أنا واحد من ٢٢ مليون أسود يشكلون ضحايا الأمركة. واحدٌ من ٢٢ مليون أسود من ضحايا الديموقراطية التي لا تعدو أن تكون نفاقاً مقنّعاً. ولهذا لا أقف أمامكم هنا لأتحدث إليكم بوصفي أمريكياً أو وطنياً أو محبِّياً للعلم أو شوفينياً مغالياً في حب الوطن. لا، هذا ما لا يمكن أن أفعله. وإنما أتحدث إليكم كضحية من ضحايا هذا النظام الأميركيّ. وإنني لأَرَى أميركا بعينَيِ الضحية. أنا لا أرى أيَّ حلم أمريكي*، بل الحق أنني أرى كابوساً أمريكياً!

ها هم أولئك الضحايا الـ ٢٢ مليوناً يستيقظون، وها هي عيونهم تتفتّح فيروْن ما كانوا في السابق ينظرون إليه فحسب، وها هم يَنضجون سياسياً وهم يتبينون أنّ هناك اتجاهات سياسية جديدة من المحيط الباسيفيكيّ إلى المحيط الأطلنطيّ. وهم يرون أنه كلما جرت انتخابات تقاربتْ أصواتُ المتنافسين بحيث دَعَتِ الحاجةُ إلى إعادة عدّ الأصوات (...)؛ وهذا ما حدث [في انتخابات الحاكمين] في مناطق كثيرة [من أميركا]. وحدث الشيء ذاته مع كينيدي ونيكسون عندما ترشّحا لمنصب الرئيس... فماذا يعني هذا؟ يعني أنه حين يكون البيض مقسومين إلى قسمين متساويين، وتكون لدى السود كتلةٌ كبيرةٌ من الأصوات الخاصة بهم، فإنّ السود هم الذين يقررون مَنْ سيجلس في البيت الأبيض ومَنْ سيجلس في بيت الكلب![...]

في الإدارة الحالية هناك ٢٧٥ ممثلاً عن الديموقراطيين في مجلس النواب و١٧٧ ممثلاً فقط عن الجمهوريين. وعليه، فالديموقراطيون يسيطرون على ثلثيْ أصوات المجلس، فلماذا لا يستطيعون تمريرَ قانونٍ لمساعدتنا؟ وفي مجلس الشيوخ هناك ٦٧ سيناتوراً من الحزب الديموقراطيّ و٣٣ فقط من الحزب الجمهوريّ. إنّ

* ـ إشارة إلى قول مارتن لوثر كنغ الابن إنّ لديه حلماً بالمساواة، مستنداً إلى تأويله للدستور. (م)

الديموقراطيين يستأثرون بالحكم، وأنتم مَنْ قدّم لهم ذلك، فماذا أعطوكم في المقابل؟ لقد أمضوا أربع سنوات في الحكم، وها هم الآن يلتقّون لكي يقدّموا بضعة تشريعات للحريات المدنية![...]

إنّ ما أحاول أن أطبعه في أذهانكم أساساً هو التالي: أنا وأنتم في أميركا لا نواجه مؤامرة فصلٍ عنصريّ، بل مؤامرةً حكومية. وكل الذين يعملون على تعطيل قوانين إنهاء الفصل العنصريّ هم مِنْ مجلس الشيوخ والكونغرس ـ أي من الحكومة...

الحقوق المدنية وحقوق الإنسان

إلام يؤدّي هذا؟ أولاً نريد كسبَ أصدقاء إلى جانبنا، نريد حلفاء جدداً. إنّ كفاح حركة الحقوق المدنية بكامله يحتاج إلى تأويلٍ جديد، تأويلٍ أوسع. نحن نحتاج إلى أن ننظر إلى الحقوق المدنية من زاوية أخرى ـ من الداخل كما من الخارج أيضاً. وبالنسبة إلى من ينتمون منّا إلى فلسفة القوميين السود، فإنّ الطريقة الوحيدة التي يُمْكننا من خلالها الانخراطُ بالكفاح من أجل الحقوق المدنية هي إعطاؤه تأويلاً جديداً؛ فالتأويل القديم يستثنينا ويبقينا خارجاً [...]. نحن بحاجة إلى أن نوسع الكفاح من أجل الحقوق المدنية ونرفعه إلى مستوى أعلى ـ إلى مستوى حقوق الإنسان. فعندما تكافحون من أجل الحقوق المدنية وحدها تَحْصرون أنفسكم في ضوابط الرجل الأبيض، وضمن الولاية القضائية للعم سام، فلا يستطيع أحد من العالم الخارجيّ التحدثَ بشأنكم ما دام كفاحكم في مستوى الحقوق المدنية، لأنّ الحقوق المدنية تنضوي تحت الشؤون الداخلية لهذا البلد، ولا يستطيع كل إخوتنا في أفريقيا وإخوتنا في آسيا وفي أميركا اللاتينية فتحَ أفواههم والتدخلَ في الشؤون الداخلية للولايات المتحدة.

لكن في الأمم المتحدة ما يسمّى «العهد الدوليّ لحقوق الإنسان»، ولديها لجنة مختصة بحقوق الإنسان. ولعلكم تتساءلون لِمَ عُرضتْ كلُّ الفظاعات التي ارتُكِبتْ في أفريقيا وفي هنغاريا وفي آسيا وفي أميركا اللاتينية على الأمم المتحدة، في حين لم تُعرَضْ عليها مشكلةُ الزنوج على الإطلاق؟ إنّ هذا لَهُوَ جزء من المؤامرة؛ ذلك أنّ أولئك التحرريين البيضَ المخادعين من ذوي العيون الزرق الذين يُفْتَرَضُ أن يكونوا أصدقاءَكم لم يُخْبرونا قطّ بأي شيء يتعلق بحقوق الإنسان، بل أبقوكم مقيدين بالحقوق المدنية...

عندما توسعون الكفاحَ من أجل الحقوق المدنية إلى مستوى الكفاح من أجل حقوق الإنسان، يمكنكم حينذاك أن تأخذوا قضية السود في هذا البلد وأن تعرضوها على الأمم المتحدة، ويمكنكم أن تأخذوها أمام الهيئة العامة، ويمكنكم أن تجرّوا العمَّ سام إلى المحكمة الدولية [...].

الإسلام والدنيا

أرغب في أن أذكر في النهاية بضعة أشياء تتعلق «بمنظمة المسجد الإسلامي» التي أسسناها مؤخّراً في مدينة نيويورك. صحيح أننا مسلمون وأنّ ديننا هو الإسلام، ولكننا لا نَخلط أمورَنا الدينية بسياستنا وأمورنا الاقتصادية ونشاطاتنا الاجتماعية والمدنية. لن نفعل ذلك كما كنّا نفعل سابقاً، بل سنُبقي أمورنا الدينية في مسجدنا، وننخرط بعد انتهاء الشعائر الدينية كمسلمين في النشاط السياسيّ وفي النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والمدنية، وسنشترك في النشاط مع أيٍّ كان وفي أيّ مكان أو وقت كان وبأيّ وسيلةٍ هدفُها القضاءُ على الشرور السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تبتلي الناس في منجمعاتنا.

القومية السوداء

إنّ الفلسفة السياسية لقومية السود تعني أنّ على السود أن يسيطروا على السياسة والسياسيين في منجمعاتهم... والفلسفة الاقتصادية لقومية السود هي فلسفة نقية وبسيطة، فهي تعني فقط أنّ على السود أن يسيطروا على اقتصاديات منجمعاتهم [...]. ونحن لا نستهدف في دعوتنا إلى قومية السود أن نجعل السودَ يعيدون تقييمَ البيض ـ فأنتم تعرفونهم من قبل ـ بل نهدف إلى جعل الرجال السود يعيدون تقييم أنفسهم. لا تحاولوا تغيير أفكار الرجل الأبيض، فليس بإمكانكم ذلك، وانْفضوا عنكم كلَّ ذلك الكلام عن استنشاد الضمير الأخلاقيّ لأميركا، لأنّ ضمير أميركا قد أفلس. لقد خسرتْ أميركا ضميرَها منذ زمن بعيد؛ إنّ العم سام لا يملك ضميراً، وهم لا يعرفون الأخلاق. إنهم لا يحاولون القضاء على الشرور لأنها شرور أو لأنها غير قانونية أو لأنها غير أخلاقية، وإنّما يَقْضون على الشرور حين تهدد وجودهم فقط [...].

السلاح

أخيراً لا آخراً، عليّ أن أقول شيئاً بخصوص الخلاف القائم على امتلاك المسدّسات والبنادق. والشيء الوحيد الذي قلتُه في السابق هو أنه عندما تكون الحكومةُ عاجزةً عن الدفاع عن حياة الزنوج وأملاكهم أو غيرَ راغبةٍ في ذلك،

فسوف يكون على الزنوج أن يدافعوا عن أنفسهم. إنّ البند الثاني في «التعديل الدستوريّ» يؤمّن لي ولكم الحقّ في امتلاك بندقيةٍ أو مسدس. وهذا لا يعني أننا سنقوم بالحصول على الأسلحة وتشكيل كتائب لمطاردة البيض، رغم أنّ ذلك مُبرَّر في حالتنا، ولكنّ ذلك سيكون غير قانونيّ، ونحن لا نفعل شيئاً غير قانوني. وإذا كان الرجلُ الأبيض لا يرغب في أن يشتري الرجلُ الأسودُ بنادقَ ومسدساتٍ، فعلى الحكومة أن تقوم بواجبها[...].

رسالة من جدّة

في ١٣ نيسان/ابريل ١٩٦٤ غادر مالكوم اكس الولايات المتحدة في رحلة طويلة زار فيها مصر ولبنان والسعودية ونيجيريا وغانا والمغرب والجزائر. وفي أثناء هذه الرحلة قام بأداء فريضة الحج. وقد شكلتْ هذه الرحلة علامةً فارقةً في تطور افكاره، وكثيراً ما كان يتحدث عنها وعمّا تعلمه منها. وفيما يلي مقتطفات من رسالة كان قد أرسلها إلى زوجته من جدّة.

جدّة، ٢٠ نيسان/ابريل ١٩٦٤

لم أشهد في حياتي ضيافةً كريمةً وروحاً غامرةً بالأخوّة الحقّة كاللتيْن شهدتُهما من أناسٍ من شتّى الألوان والأعراق في هذه الأرض العريقة المقدسة، وطنِ إبراهيم ومحمد وكلّ أنبياء الكتب المقدّسة الآخرين. فقد كنتُ خلال الأسبوع الماضي مفتوناً وعاجزاً عن التعبير عما رأيتُه من كرمٍ يَعْرضه الناسُ من حولي **على اختلاف ألوانهم** [التشديد من مالكوم].

[...] كان هناك عشرات الآلاف من الحجّاج من جميع أنحاء العالم، وكانوا من شتى الألوان: من الشقر ذوي العيون الزرق، إلى الأفارقة السود البشرة. ولكنهم كانوا جميعاً يمارسون الطقوسَ الروحية ذاتها، وكانوا يَكْشفون عن روحٍ من الوحدة والأخوّة التي قادتْني خبرتي في أميركا إلى الاعتقاد باستحالة وجودها بين البيض وغير البيض.

إنّ أميركا لفي حاجة إلى فهم الإسلام، لأنّ هذا هو الدين الوحيد الذي يمحو مشكلةَ العِرْق من مجتمعها. وأثناء رحلاتي في العالم الإسلاميّ التقيتُ وتحدثتُ، بل وأكلتُ مع أناس كانوا سيُعتَبَرون «بِيضاً» في أميركا. ولكنّ دين الإسلام في قلوبهم أزال «البياضَ» من عقولهم، فراحوا يمارسون أخوّةً حقيقية وصادقة مع الناس الآخرين أيّاً يكن لونهم.[...]. إنّ الإسلام الحقيقيّ يزيل العنصرية، لأنّ الناس (من شتى الألوان والأعراق) الذين قبلوا مبادئه الدينية ويعبدون إلهاً واحداً هو الله عزّ وجلّ، يَقْبلون أيضاً وتلقائياً واحدَهم الآخرَ بوصفهم إخْوةً وأَخَواتٍ، بغضّ النظر عن اختلافهم في المظهر.

قد تُصْعَقين حين تسمعين كلامي هذا، ولكنني كنتُ على الدوام رجلاً يحاول مواجهةَ الحقائق، وتقبُّلَ واقع الحياة كما تكشف عنه المعارفُ والخبراتُ الجديدة. ولقد علمّتني تجربةُ الحجّ هذه الشيءَ الكثيرَ، وكلُّ ساعةٍ أقضيها في هذه الأرض المقدسة تفتّح عينيّ أكثر فأكثر. وإذا تمكّن الإسلامُ من غرس روح الأُخوّة الحقّة في قلوب «البيض» الذين قابلتُهم هنا في أرض الأنبياء، فمن المؤكد أنّ باستطاعته أن يمحو سرطانَ العنصرية من قلوب الأميركيين البيض(...).

خطابه في قاعة الأودوبون

نيويورك ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٤

[....]

عندما تنظرون إلى تاريخنا النضاليّ، أعتقد أنكم ستتفقون معي على أننا جرّبنا أنماطاً مختلفة من النضال، وأنّ كل الطرق التي جرّبناها لم تأْتِنا بما كنّا نناضل من أجله؛ فلو كان أيٌّ منها منتِجاً، لكنّا تابعناه. ولربّما جرّبنا طرقاً مختلفة أكثر مما جرّب أيُّ شعبٍ آخر. ولكنني أعتقد، في الوقت ذاته، أنّنا جربنا طرقاً مختلفة **خاطئةً** أكثر مما جرّب أيُّ شعب آخر، لأنّ أكثر الشعوب الأخرى حققتْ قدراً أكبر من الحريّة التي نملكها. فأنّى تولّوا أبصاركم تروا شُعوباً تحقّق حريّتَها أسرعَ منا، وتحظى باحترام واعتراف أسرعَ منّا. لقد

حصلنا نحن على وعودٍ ولكننا لم نحصل قطّ على أيّ شيء حقيقيّ، وذلك مردُّهُ أساساً إلى أنه ما زال علينا أن نتعلم الأخطوطة (التكتيك) أو الاستخطاطية (الاستراتيجية) أو الأسلوبَ المناسبَ لتحقيق الحرية على أرض الواقع. وأعتقد أنّ أحد الأسباب التي أدّت بشعبنا في هذا البلد الى تجريب كلّ هذا العدد الكبير من الطرق هو أنّ الظروف قد تغيّرتْ بتواتر سريع؛ فما كان نافعاً قبل عشر سنوات لم يكن نافعاً قبل سبع سنوات أو خمس سنوات أو ثلاث سنوات [...].

الناس والبرنامج

سألني عدة أشخاص منذ فترة وجيزة، وبعد عودتي [من أفريقيا]: «ما هو برنامجك»؟ وأنا إلى هذا اليوم لم أذكرْ، وعن قصدٍ، ما هو برنامجنا، لأنّه سيأتي الوقتُ الذي سنكشف فيه عنه بحيث يفهمه كلُّ شخص. إنّ السياسات تتغير، والبرامج تتغير، وفقاً لظروف الزمن، ولكنّ الأهداف لا تتغير أبداً. إنّ أهدافنا هي التحرر الكامل والعدالة الكاملة والمساواة الكاملة، وسنحقّق ذلك بكل الوسائل الضرورية؛ وهذا لا يتغير أبداً(...). أنا لا يهمني انتماؤكم؛ فمازلتم تريدون الاعترافَ والاحترامَ بوصفنا آدميين، ولكنكم غيّرتم وسائلَ تحقيق ذلك من وقت إلى آخر، والسبب هو الزمن والظروف التي تطرأ. وأحد تلك الظروف التي طرأتْ على هذه الأرض الآن، ولا نعلم عنه إلاّ القليل، هو علاقتنا بالكفاح التحرريّ للشعوب في كل العالم [...].

أنا شخصياً أعتقد أنكَ إذا أفهمتَ الناسَ ما يواجههم إفهاماً تاماً والأسبابَ الأساسيةَ التي أدّتْ إليه، وضعوا بأنفسهم برنامجاً خاصاً بهم. وعندما يضع الناسُ برنامجاً ينشأ التحرُّك. أمّا عندما يضع «القادةُ» برنامجاً فإنّك لن تجد أيّ تحرّك، والوقتُ الوحيد الذي تراهم فيه هو الوقت الذي ينفجر فيه الناسُ، فإذّاك يَقتحم القادةُ ويوجّهون للسيطرة على الأمور! أنتم لا تستطيعون أن تَذْكروا لي قائداً واحداً تسبَّب بانفجارٍ شعبيٍّ. لا، إنّ القادة يأتون لاحتواء الانفجار! وتجدهم يقولون: «لا تأخذوا [الأمورَ] بالخشونة، عليكم التصرف بذكاء». وهذا هو دورهم - إنّهم موجودون كي يكبحوكم ويكبحوني، ولكي يكبحوا الكفاحَ ويبقُوه في مسارٍ محدد فلا يخرج عن السيطرة.. في حين أنّنا لا نريد لأيٍّ كان أن يمنعنا من الخروج عن السيطرة. فنحن نريد أن نخرج عن السيطرة، ونحن نريد أن نحطّم أيّ شيء يقف في طريقنا حين لا يكون منتمياً إلى أهدافنا وكفاحنا.

أفريقيا

إذن، أيها الإخوة والأخوات، الأمر الذي عليكم وعليّ أن نفهمه هو الدور الذي يؤدّى في القضايا الدولية اليوم بواسطة قارة أفريقيا أولاً؛ وبواسطة شعوب تلك القارة ثانياً؛ وبواسطتنا نحن ثالثاً، [وأقصد:] نحن الذين لنا صلة بشعوب تلك القارة ولكننا - وبسبب التواءٍ في تاريخنا - نجد أنفسنا هنا اليوم في النصف الغربيّ من الكرة الأرضية [...].

إنّ افريقيا تقع جغرافياً واستخطاطياً بين الشرق والغرب، وهي أنفَسُ قطعةِ ملْكٍ من بين القطع الواقعة ضمن الصراع بين الشرق والغرب: فلا يمكنك الوصولُ إلى الشرق دون أن تمرَّ بها، ولا يمكنك أن تأتي من الشرق إلى الغرب دون أن تمرَّ بها، وهي قابعة هناك بين الأطراف كلهم، وتستكين في عشٍّ بين آسيا وأوروبا، وبإمكانها الوصول إلى أيّ منهما، كما أنه ليس بالإمكان نقلُ أيٍّ من المصادر الطبيعية التي تحتاجها أوروبا والتي تحصل عليها من آسيا دون المرور عبر أفريقيا أو حول أفريقيا أو عبر قناة السويس التي تقع في رأس افريقيا. إنّ بإمكان افريقيا قطعَ الخبز عن أوروبا، وبإمكانها أن تُسْلِم أوروبا إلى النوم بين ليلة وضحاها لأنها في موقع يؤهّلها لأن تفعل ذلك. ولكنهم يريدون لي ولك أن نعتقد أنّ افريقيا غابةٌ لا قيمة لها ولا أثر، لأنهم يعلمون أنك إنْ علمتَ مدى قيمتها فستعلم لماذا يقتلون شعبنا هناك (...).

وهناك سبب آخر لأهمية القارة وهو الذهب الموجود فيها، إذ إنّ فيها واحداً من أكبر مقادير رواسب الذهب في العالم. وفيها الماسُ أيضاً؛ وأنا لا أقصد الماس الذي تتقلدونه في أصابعكم وآذانكم فقط بل الماس الصناعيّ، الماس الذي يحتاجونه لصناعة الآلات...، وبدون ذلك الماس تتوقف صناعتهم [...]. ليس فقط الماس، بل الكوبلت أيضاً. والكوبلت هو أحد أهم المعادن النفيسة على الأرض اليوم، وأعتقد أنّ أفريقيا هي من الأماكن القليلة في العالم التي يوجد فيها. إنهم يستعملونه لمعالجة السرطان، بالإضافة إلى أنهم يستعملونه في مجال الطاقة النووية التي سمعتم الكثير عنها[...]

ومن الناحية السياسية، فإنّ لأفريقيا قارةً، وللشعوب الأفريقية سكّاناً، أكبرَ تمثيلٍ قاريّ في الأمم المتحدة. والأفارقة، سياسياً أيضاً، هم في أفضل موضع استخطاطيّ وفي أقوى وضع كلما انعقد مؤتمر على المستوى الدوليّ(...). إنّ القوة الوحيدة التي بإمكانها مساعدتكم ومساعدتي هي القوة الدولية لا القوة المحلية (...). فلماذا علينا أن نبقى فاقدين لعقولنا ولا نتماهى مع تلك الكتلة القوية؟(...)

حوارات ومواقف قبل ٣ شهور من اغتياله

عن العنصرية ودولة السود

*** ما هو الفَرْق بين عنصرية البيض وعنصرية السود؟**

ـ عادةً يُنتَجُ العنصريُّ الأسودُ من قِبَلِ العنصريّ الأبيض. وفي معظم الحالات نجد أنّ عنصرية السود، حين نتفحّصها عن قرب، إنما هي ردُّ فعلٍ على عنصرية البيض. وأعتقد أنّ السود قد أظهروا نزعاتٍ عنصريةً أقلّ من أيّ شعب آخر منذ فجر التاريخ (...).

إذا استجبنا لعنصرية البيض بردّ فعلٍ عنيف، فإنّ ذلك في نظري لن يكون عنصريةً من قِبل السود. فلو أتيتَ لتضع حبلاً حول عنقي وشنقتُك بسبب ذلك، فإنّ ذلك بالنسبة إليَّ ليس عنصرية، وإنما فعلُك أنتَ هو العنصرية. إنّ ردَّ فعلي ما هو إلاّ ردُّ فعلِ إنسانٍ يقوم بالدفاع عن نفسه وحمايةِ نفسه. وهذا ما لم يفعله شعبُنا بعدُ، وهناك قسمٌ من شعبنا ـ من حملة الشهادات الأكاديمية العالية على الأقل ـ لا يريدون أن يفعلوا ذلك، ولكنّ أكثرنا ليسوا من ذلك المستوى!

*** ما هو في اعتقادك سببُ التحيّز العِرْقي في الولايات المتحدة؟**

ـ الجشع والجهل، بالإضافة إلى برنامجٍ من التجهيل مصمَّم بمهارةٍ ويترافق مع نظام الاستغلال والقمع الأمريكيّ. أعتقد أن سكان أميركا لو عُلِّموا جميعُهم بالطريقة الصحيحة فسيصبح كثيرٌ من البيض أقلّ عنصريةً في مشاعرهم. وعندما أقول: «تعليمهم بالطريقة الصحيحة» فإنّما أعني إعطاءهم الصورةَ الحقيقيةَ عن تاريخ السود وعن إسهامات السود في الحضارة. وعندها سيكون البيضُ أكثر احتراماً للسود كبشر(...) وسيَبْطل شعورُهم بالتفوق ـ جزئياً على الأقل. كما أنّ مشاعر الدونية لدى السود سوف تُستَبْدَل بمعرفةٍ مُتّزنةٍ بأنفسهم، وسوف يَشْعرون بإنسانيتهم أكثر ويتصرفون كبشر. في مجتمع من البشر. وعليه، فإنّ القضاء على العنصرية يتطلّب التعليم [المناسب]. وأما وجود الجامعات والمعاهد فهذا لا يعني وجود تعليمٍ [أو تربية]؛ ذلك لأنّ الجامعات والمعاهد في نظام التعليم الأميركيّ تُستخدم بمهارةٍ من أجل التجهيل.

*** هل ثورة الزنوج ثورة عِرْقية؟**

ـ نحن نعيش في حقبة ثورية، وما ثورةُ الزنوج الأميركيين إلاّ جزءٌ من الثورة ضد القمع والاستعمار التي ميّزتْ هذه الحقبة... من الخطإ تصنيفُ ثورة الزنوج ببساطة على أنها نزاع عِرْقيّ بين السود والبيض، أو بوصفها مشكلةً أميركية خالصة. فنحن نرى اليوم ثورةً كونيةً للمضطهَدين ضد المضطهِدين، والمستغَلين ضد المستغِلين. إنّ ثورة الزنوج ليست ثورةً عِرقية. بل نحن نرغب في ممارسة الإخاء مع أيّ شخص يرغب في العيش بناءً عليه. ولكنّ الرجل الأبيض ماانفكّ يبشّر بمذهبٍ فارغٍ من الإخاء لا يعدو أن يكون تقبُّلَ الزنوج السلبيَّ لمصيره...

*** قبل أن تترك إلايجه محمد وتذهبَ إلى مكّة فترى عالمَ الإسلام الأصيل، كنتَ تؤمن بالانفصال الكامل بين البيض والزنوج؛ كنتَ معارضاً للاندماج العِرقيّ والزواج المختلط . فهل غيَّرتَ معتقداتكَ تلك؟**

ـ أنا أؤمن بأنّ على كل كائنٍ بشريٍّ أن يُقدَّرَ بوصفه كائناً بشرياً ـ لا بوصفه أبيضَ أو أسودَ أو أسمرَ أو أحمرَ. وعندما تتعامل البشرية وكأنّها عائلة واحدة فلن يكون الاندماج العرقيُّ أو الزواج المختلط هو الموضوع، بل يكون الأمرُ أمرَ زواج كائنٍ بشريٍّ بكائنٍ بشريٍ آخر، أو كائنٍ بشريّ يعيش مع كائن بشريّ آخر. ومع هذا يمكنني القول إنني لا أعتقد أنّ وزْرَ هذا الأمر يجب أن يوضع على السود(...) لأنّ الرجل الأبيض جمعيّاً هو أوّلُ مَنْ أظهر عدائيته للاندماج والزواج المختلط وللخطوات الأخرى في طريق التوحّد. لهذا فأنا كرجل أسود، وبالأخص كأميركيّ أسود، لا أرى أنّ عليّ أن أدافع عن أيّ موقف اتخذتُه في السابق، لأنه يظل ردَّ فعلٍ على المجتمع الذي أنتج هذا الأمرَ(...).

*** ولكنك لم تعد تؤمن بإقامة دولةٍ للسود(...) في أميركا الشمالية؟**

ـ لا، أنا أدعو إلى إقامة مجتمعٍ يمكن أن يعيش الناسُ فيه كبشرٍ وعلى أساس المساواة.

*** لقد كان هناك كلام، وأعتقد أنك أنتَ الذي قلتَه، أو قاله إلايجه محمد، عن معركةٍ فاصلةٍ ستجري في الولايات المتحدة بحلول العالم ١٩٨٤. وأنا أتساءل إذا كنتَ ما تزال تؤمن به؟ ولماذا ذلك الموعد بالتحديد؟**

ـ أعتقد أنّ الكثير ممّا علّمه إلايجه محمد لا يُؤْمن به هو نفسُه، وأنا أقول ذلك وأستطيع أن أدافع عما أقوله بسهولة إذا ما جلستُ قبالته. ولكني أعتقد، فيما يتعلق بصراع فاصلٍ بين الشرق والغرب، أنّ تحليلاً موضوعياً للأحداث التي تجري حالياً سيشير إلى نشوء نوع من الصراع النهائيّ الفاصل؛ وهو صراعٌ بإمكانك أن تدعوه صراعاً سياسياً أو حتى صراعاً بين الأنظمة الاقتصادية الموجودة على هذا الكوكب والتي تعتمل على محاور عِرقية تقريباً. أنا أؤمن فعلاً بأنه سيكون هناك صراعٌ فاصلٌ بين الشرق والغرب. وأنا أعتقد بأنه سيحدث في النهاية صِدامٌ بين المقموعين وأولئك الذين يقومون بالقمع، بين أولئك الذين يريدون الحريّةَ والعدالةَ والمساواةَ للجميع وأولئك الذين يريدون لأنظمة الاستغلال أن تستمرّ. أعتقد أنه سيحدث يوماً ما صدامٌ من هذا النوع، ولكنني لا أعتقد أنه سيكون مرتكزاً إلى لون البشرة كما علّم إلايجه محمد(...).

عن تنظيم الناس

*** هل تخطّط لاستخدام الكراهية أداةً لتنظيم الناس؟**

ـ أنا لا أسمح لك بأن تدعو ذلك «كراهيةً». فلنُقلْ إنني سوف أخلق وعياً لدى الناس بما صُنِعَ بهم. وهذا الوعي سيُنتج غضباً عارماً، بشكليْه السلبيّ والإيجابيّ، ويمكن توجيهُ هذا الغضب بشكل بنّاء(...). لقد كان الخطأُ الأكبرُ لدى الحركة أنها كانت تحاول تنظيم أناسٍ نيامٍ لتحقيق أهدافٍ محدّدة. ولكن عليك أن توقظ الناسَ أولاً، ومن ثمّ تحصل على الفعل.

*** توقظهم على حقيقة استغلالهم؟**

ـ لا، نوقظهم على إنسانيتهم، وعلى قيمتهم الذاتية وتراثهم. إنّ الفرق الأكبر ما بين الاضطهاديْن المتوازييْن لليهود والزنوج هو أنّ اليهوديّ لم يفقدْ مطلقاً اعتزازَه بكونه يهودياً، ولم يتوقف أبداً عن أن يكون رجلاً [حقّاً]، وكان يعرف أنه قدّم مساهمةً نفيسةً إلى العالم، وقد أعطاه إحساسُهُ بقيمته الذاتية شجاعةً مكّنتْه من أن يردّ العدوانَ، ومكّنه من أن يتصرّف ويفكر باستقلالية؛ وهذا على النقيض من شعبنا وقادتنا.

*** هل تؤمن بالعمل السياسيّ؟ وإذا رشّحَتْك الجماعاتُ اليساريةُ لمنصب عمدة المدينة فهل ستقبل؟**

ـ نعم، أنا أؤمن بأيّ نوع من العمل السياسيّ. أنا أؤمن بالعمل وحسب، نقطة على السطر! وأيُّ نوع من العمل سيكون ضرورياً. وعندما تسمعني أقول «بكل الوسائل الضرورية» فأنا أعني ذلك تماماً. أنا أؤمن بأيّ نوع من العمل من أجل تصحيح الأوضاع الظالمة ـ سواء أكان عملاً سياسياً أم اقتصادياً أم اجتماعياً أم جسدياً... أنا أؤمن بكل ذلك ما دام موجّهاً بذكاءٍ ومصمّماً للحصول على نتائج. ولكنني لا أؤمن بالانخراط في أيّ نوع من العمل السياسيّ أو غيره دون التوقف لتحليل احتمالات النجاح أو الإخفاق. وأعتقد أيضاً أنّ على الجماعات ألا تشير إلى نفسها بتصنيفاتٍ من قبيل «يساريين» أو «يمينيين» أو «وَسَطيين». بل أنا أعتقد أنّ عليهم أن يكونوا ما يكونون، وألاّ يَدَعوا الناسَ يضعون لهم ألقاباً وتصنيفات... إذ إنّ التصنيفات قد تدمِّر أحياناً.

*** لقد أعربتَ عن رغبتك في ترشيح مرشّحين من الثوريين السود لمناصب حكومية عامة، فهل سترشّح نفسك أيضاً؟**

ـ لا أعرف ذلك حالياً. ولكنني أعتقد أنني سأكون أكثرَ فاعليةً في مهاجمة مؤسسة الحكم؛ فالمرء لا يستطيع فعلَ ذلك عندما يصبح في داخل المؤسسة!

*** هل تعتقد أنّ هناك حاجةً إلى أحزاب مقتصرة على السود مثل حزب «الحرية» الآن الموجود في ميشيغان؟**

ـ نعم، ففي بعض الحالات علينا أن نبتكر آلياتٍ جديدةً للعمل، وفي حالات أخرى من الأحسن أن نسيطر على آليات موجودةٍ فعلاً. وفي كلتا الحالتين سنكون منخرطين في كل مستويات العمل السياسيّ بدءاً من العام ١٩٦٥.

ربط المشكلات

*** في النقاش الأخير الذي جرى في الأمم المتحدة حول الكونغو، قام عددٌ من ممثلي الأمم الأفريقية بشجب تدخل الولايات المتحدة في الكونغو وربطوا بين دورها هناك وبين معاملتها للسود في المسيسيبي. ثم قال أحد معلّقي الصحف إنّك أنتَ مسؤولٌ جزئياً على الأقل عن اتخاذ الوفود الأفريقية لهذا الموقف.**

ـ أنا لم أدّع أبداً المسؤوليةَ ـ أو قُلِ الفضلَ ـ عن الموقف الذي اتُّخذ من قِبل الأمم الأفريقية. فالأمم الأفريقية ممثَّلةٌ اليومَ برجالِ دولٍ أذكياء، وكان الأمر لا يعدو مسألة وقتٍ قبل أن يجدوا أنّ عليهم التدخلَ بالنيابة عن ٢٢ مليون أميركي أسود هم إخوتهم وأخواتهم. إنّ ذلك ليعطي مثالاً جيداً على السبب الذي يدفعنا إلى تدويل قضيتنا. وها هي الأمم الأفريقية تحتجّ الآن وتربط قضية العنصرية في الميسيسيبي بقضية العنصرية في الكونغو، وبقضية العنصرية في ڤيتنام الجنوبية. إنها جميعها [قضايا] نابعةٌ من العنصرية، وكل ذلك هو جزء من النظام العنصريّ الشرس الذي استخدمته القوى الغربيةُ للاستمرار في استغلال الشعوب في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية...

عن التعاون مع المجموعات الأخرى

*** لقد قلتَ إنّ موقفك قد تغيّر بخصوص الكثير من القضايا في السنة الأخيرة. فماذا عن موقفك بصدد منظمات الحقوق المدنية القائمة؟**

ـ أنا أدعم أيَّ اتجاه يؤدي الى إحراز نتائج، ولا أؤيّد أيَّ منظمة ـ أكانت للحقوق المدنية أم لأيّ أمرٍ آخر ـ تساوم هيكلَ السلطة وتعتمد على عناصر محددة في هيكل السلطة من أجل تمويلها، لأنّ هذا الأمر يضعها تحت تأثيرِ وسيطرة هيكل السلطة ذاته من جديد. أنا أدعم الانخراط في أيّ عملٍ يؤدي إلى إحراز نتائج ذات معنى لجماهير شعبنا ـ لا لمصلحة عددٍ قليلٍ من الزنوج المنتقين في القيادة والذين يحصلون على الهيبة والفضل في حين تبقى مشاكلُ الجماهير دون حلّ.

*** إنّ الخلاف بين مالكوم أكس وقادة حركة الحقوق المدنية هو خلاف حول أخطوطة العنف في مقابل أخطوطة اللاعنف ـ أو هو، كما يعبّر مالكوم، خلافٌ حول الدفاع عن النفس في مقابل المازوخية. وهذا الخلاف هو ما يمنع الوحدة التي يشعر مالكوم أنها أحدُ المفاتيح الرئيسية في الكفاح.**

ـ ليس مردّ ذلك إلى عدم وجود الرغبة في الوحدة، أو أنّ الوحدة مستحيلة، أو لأنهم لا يتفقون معي في الخفاء، بل إنّ السبب هو أنّ معظم المنظمات تعتمد على مال البيض وتخشى فقدانَهُ! لقد أمضيتُ ما يقارب العام دون أن أهاجمهم، وكنت أقول: «فلنجتمعْ، فلنفعلْ شيئاً ما»، ولكنهم خائفون بشدّة. وأعتقد أنّ عليّ التوجّه إلى الناس أولاً، وأن أجعل القادةَ يلحقون بهم بعد ذلك. وهذا لا يعني أنني أستبعد التعاون، بل سوف أحاول تقوية المجالات والنشاطات التي يُمْكن المجموعاتِ أن تعمل فيها معاً. وإذا كنّا ذاهبين الى حلبة ملاكمة، فليس على قبضتنا اليمنى أن تصبح قبضَتَنا اليسرى، وإنّما علينا أن نستخدم رأساً مشتركاً إذا كنّا نريد الفوزَ.

برقية الى رئيس الحزب النازي الأميريكي

[في تجمّع حاشد لمنظمة «اتحاد الأفارقة الأميركيين» عُقد في حيّ هارلم بتاريخ ٢٤ كانون أول/يناير ١٩٦٥، قال مالكوم إنه شاهد على التلفزيون في نشرة الأخبار أحد العنصريين البيض يدفع بالقسيس مارتن لوثر كنغ الابن ويُوقعه ارضاً. وقال مالكوم «لقد سبّب ذلك لي الألم»، وأضاف أنه لو كان موجوداً هناك لهرع إلى مساعدة كنغ. ثم قرا على الملإ نصَّ برقيةٍ أرسلها إلى جورج لينكن روكويل رئيس الحزب النازي الأميركي، وفيما يلي نص البرقية]:

«أُرسل إليكم هذه البرقية لأحذِّركم من أنني لم أعد مقيَّداً عن مقاتلة العنصريين البيض؛ فأنا لم أعُد مقيَّداً من قِبل حركة إلايجه محمد للانفصاليين السود المسلمين. وأرسلها إليكم أيضاً لأحذِّركم من أنه لو سبّب تهيجُكم العرقيُّ الحاليُّ ضد شعبنا في ألاباما أيَّ أذى جسديّ للقسيس مارتن لوثر كنغ الابن أو لأيّ أميركيّ أسود من الذين يسعوْن إلى التمتع بحقوقهم كبشر، فإنكم ستواجَهون، أنتم وأصدقاؤكم من منظمة «كوكلوكس كلان»، بأقصى الانتقام الجسديّ من قبلنا، نحن الذين لا تقيّدنا فلسفةُ اللاعنف ولا تجرّدنا من أسلحتنا الجسدية، والمؤمنين بممارسة حقنا في الدفاع عن النفس بكل الوسائل الضرورية».

من كلماته الأخيرة

أجرى مالكوم قبل اغتياله بثلاثة أيام مقابلة مع صحيفة نيويورك تايمز، وقال فيها:

«أشعر كأني رجلٌ كان نائماً وتحت سيطرة شخص آخر. أشعر بأنّ ما أقوله وما أفكر به الآن يُعبّر عني أنا، وقبل ذلك كان ما أقوله وما أفكر به نابعاً من إلايجه محمد وإرشاداته. أنا الآن، يا سيدي، أفكر بعقلي أنا.

مغالاة مالكوم وكبوته

بقلم: معد الملف

بعد أن عرضنا هذه المواد أشعر أنّ من الضروريّ تقديمَ جانبٍ آخر من شخصية مالكوم أكس، وإنْ كان جانباً سلبياً (من وجهة نظري)، ألا وهو جانب المغالاة والشطط. وسأورد على ذلك مثالين من خطبه:

المثال الأول أجتزئُهُ من الخطبة في قاعة الأودوبون التي أوردنا منها بعض المقاطع فيما سلف. فقد قال متحدثاً عن مقاتلي الماو ماو الذين قاتلوا الاستعمار البريطانيّ في كينيا:

"قرأتُ في إحدى المرات قصةً قصيرة، وأثبَتَ الماو ماو أنها صحيحة. تقول القصة إنّ شخصاً ما سأل مجموعةً من الناس: 'كم واحداً منهم يرغب في التحرر؟'، فرفع الجميع أيديهم، وكان عددهم ثلاثمائة كما أعتقد. ثم سألهم: 'كم واحداً منكم على استعداد لقتل أيّ شخص يقف عقبةً في طريقه لتحقيق الحرية؟' فرفع خمسون شخصاً أيديهم. فقال لهؤلاء الخمسين: 'قفوا أنتم في هذا الجانب'، وبقي مائتان وخمسون شخصاً جالسين كانوا يرغبون في تحقيق التحرر ولم يكونوا مستعدين للقتل في سبيله. ثم قال للخمسين الواقفين: 'والآن أنتم تريدون الحرية وقلتم إنكم مستعدون لقتل أيّ كان يقف في طريقكم. فهل ترون هؤلاء الأشخاص المائتين والخمسين؟ عليكم بقتلهم أولاً. إنّ بعضهم هم إخوتكم وأخواتكم وآباؤكم وأمهاتكم، ولكنهم هم الذين يقفون في طريق حريتكم. إنهم يخافون من فعل كل ما هو ضروري لتحقيق الحرية وسيمنعونكم من تحقيقها؛ فتخلصوا منهم وستأتي الحرية من تلقاء نفسها'.

أنا أزيد ذلك، وهذا ما تعلمه الماو ماو، لقد عرفوا أنّ الشيء الوحيد الذي يقف في طريق استقلال الأفارقة في كينيا هو أفارقة آخرون، لذلك بدأوا بالتخلص من الأعمام توم أولئك واحداً واحداً".

نلاحظ مغالاة واضحة في الفقرة السابقة، إذ يريد مالكوم من كل النّاس أن يكونوا «أبطالاً»، والأقربون أَوْلى «بالمعروف». وعلينا أن نتذكر أنّ مالكوم كان ـ في أول نشاطه السياسيّ ـ يصف قادةَ حركة الحقوق المدنية بأنهم أعمام توم، ومن الواضح أنه كان يحرّض على قتلهم. ولو افترضنا أنّ هناك شخصاً ما في ذلك الزمن لام مالكوم لأنه لم يحمل السلاح ويطلق النار على العابرين في الشوارع، واعتَبَرَه «عمَّ توم»، فإنّ مالكوم كان سينادي بقتله، وهكذا تبدأ دورةٌ من العنف بين أبناء الجلدة الواحدة لا تنتهي إلا بنهايتهم. ولو كان مالكوم ينادي بقتل الخونة والمتعاونين المكشوفين لهان الأمر، ولكنه ينادي بقتل الناس المسالمين بطبعهم أو لمجرد أنهم خائفون.

ولم يقف مالكوم عند هذا الحد في مغالاته؛ فالمثال الثاني يصل بالمغالاة إلى حد الجنون، وهذا المثال أجتزئُهُ من خطبة «بلاغ إلى القاعدة الشعبية» ويقول فيها:

"[الصينيون أثناء الثورة] ألقوا بالبريطانيين خارجاً، وألقوا الى جانبهم بالأعمام توم الصينيين، فقدّموا بذلك مثالاً جيداً. وعندما كنتُ في السجن (...) قرأتُ مقالاً... يُظهر فتاةً صينية صغيرة تبلغ من العمر تسعة أعوام وهي تضغط على زناد سلاح لتقتل أباها الجاثي على ركبتيه ويديه لأنّه كان عمَّ توم صينياً. وعندما قاموا بالثورة هناك أخذوا جيلاً كاملاً من الأعمام توم ومَحَوْهم محواً. وفي خلال عشر سنوات أصبحتْ تلك البنتُ الصغيرةُ امرأةً مكتملة. لم يعد هناك أعمامُ توم في الصين. والصين اليوم هي من أقوى الدول وأشدّها، ومن أكثرها على وجه الأرض إثارةً لهلع الرجل الأبيض...".

إنّ مالكوم هنا يهلّل لقيام طفلة صغيرة بإطلاق النار على والدها «العم توم»، ولمقتل «جيل كامل» من الأعمام توم. ولكنّ الجرائم ـ كما نرى ـ تظل جرائمَ وإنْ قام بها «الثوّار»؛ وأعتقد أنّ الصورة في غنىً عن أيّ تعليق.

أما كبوات مالكوم فأرغب في أن أورد مثالين عليها أيضاً. والمثال الأول يتعلق بمطلبه المبكّر بالانفصال والاستقلال بقطعة أرضٍ تخصّصها الحكومةُ الأميركيةُ للسود ـ وهذا موقف يشترك فيه مع قطاع عريض من السود في أميركا. ونلاحظ أنّ مالكوم لم يحدِّد تماماً أين يريد قطعة الأرض هذه. فقد قال إنها يجب أن تكون في افريقيا، أو في نصف الكرة الغربي (ولم يحدد أنها ضمن حدود الولايات المتحدة). فإذا عنى أنها في حدود الولايات المتحدة فهو لا يضع أيَّ اعتبار لأصحاب الأرض الأصليين (الهنود «الحمر») ولا يجد حَرَجاً في أن يأخذ أرضاً مسروقة رُويتْ بدماء أصحابها! وإذا لم يعنِ أنها في الولايات المتحدة، وسلّمنا أنه ليست هناك بقاعٌ فارغةٌ في العالم وخصوصاً بالمواصفات التي يحددها مالكوم (أرض خصبة وغزيرة الأمطار وغنية بالثروات المعدنية)، فسنستنتج أنه يريد حلَّ مشكلة السود في أميركا على حساب شعب آخر، أي أنه ينادي بتأسيس دولةٍ تكون نسخةً ثانيةً عن إسرائيل. وهذا يقودنا إلى المثال الثاني عن كبوات مالكولم، ألا وهو موقفه من الدولة العبرية.

نوجز موقف مالكوم من الدولة العبرية بهذه المقتطفات من كتاب سيرة حياة مالكوم، **وقد أعدّه الكاتبُ الأميركيُّ الشهير**

اليكس هايلي (مؤلف رواية الجذور) بالتعاون مع مالكوم، وصدر عامَ ١٩٦٥. يقول مالكوم في الصفحة ٢٧٧ من هذا الكتاب ما يلي:

" لقد قدَّمَ اليهودُ مساهمةً لألمانيا أكثر مما قدّمَ الألمانُ أنفسُهم لها. وفاز اليهودُ بأكثر من نصف جوائز نوبل التي فازت بها ألمانيا. كذلك كانت كلُ فروع الثقافة في ألمانيا تحت قيادة اليهود، ونَشَرَ اليهودُ أعظمَ القصائد، وكان منهم المؤلفون الموسيقيون والمخرجون المسرحيون، ولكنّ هؤلاء اليهود ارتكبوا خطأً قاتلاً، وهو الذوبان في المجتمع الألماني. فمنذ الحرب العالمية الأولى وحتى ظهور هتلر، تزايد الزواج المختلط بين اليهود والألمان. كما قام الكثير من اليهود بتغيير أسمائهم ودينهم، فتخلّوا عن دينهم اليهودي وعن جذورهم الثقافية والعرقية الغنية. لقد تخدّروا وانقطعوا... حتى صاروا يفكرون بأنفسهم كالألمان.

وأفاق اليهود فوجدوا هتلر أمامهم، يصعد إلى السلطة من حانات البيرة ــ بنظريته عن العرق الآري المتفوّق ــ ووجد في متناول يده كبشَ فداء جاهزاً وهم اليهود 'الألمان' الذي أضعفوا أنفسهم وضلّلوها. وأكثر ما يثير الاستغراب هو كيف ظلّ هؤلاء اليهود ــ بكل ما لديهم من عقول عبقرية وبكل ما لديهم من قوةٍ في كل شؤون ألمانيا ــ مسمَّرين دون أن يفعلوا شيئاً(...). لقد كانت عمليةُ غسيل الدماغ التي حصلت لهم من الاكتمال بحيث أنّ كثيراً منهم ظلّوا يهمسون في غرف الغاز: 'لا يمكن أن يكون ما يحدث حقيقياً!'(...). وبعد ذلك أقام اليهودُ دولةَ إسرائيل، دولةً خاصةً بهم ــ وهي الشيء الوحيد الذي حاز احترام كل الأعراق في العالم وتفهُّمَهم".

إنّ ما أثار استغرابي هو السطران الأخيران من الفقرة السابقة، وقد حاولتُ أن أجد مبرراً لموقف مالكوم، فافترضتُ أنه نابع من جهله بحقيقة الصراع في فلسطين والعالم العربيّ. ولكنّ مالكوم لم يجهل ذلك، ولاسيما أنه زار المنطقة في العام ١٩٥٩ والتقى بالقائد جمال عبد الناصر، وكان كثيراً ما يمتدح القيادة المصرية والثورة المصرية في خطبه، كما أنه زار المنطقة في العام ١٩٦٤ وأدّى فريضة الحج. ومن المستبعد ألاّ يكون قد تعرّف على مأساة الشعب الفلسطينيّ.

لقد كان مالكوم يرى الصراعات في العالم تدور حول العرْق واللون، وبدأ بتغيير موقفه هذا في آخر أيامه، ويبدو أنه لم يغيره تماماً. فقد كان يحلم دائماً بدولة عرقية للسود، وأعتقد أنه كان يرى في إسرائيل نموذجاً لهذه الدولة ولاسيّما بكل المساعدات التي تنهال عليها من أميركا والغرب. ألم يكن يطالب أميركا بمساعدة دولة السود المرجوّة لمدة عشرين أو خمسة وعشرين عاماً الى أن يقوى عودها؟ ولكنْ إنصافاً لمالكوم، نؤكّد أنّ هذه الفكرة ليست فكرته، بل هي ترجع بجذورها إلى الأيام المبكرة من صراع السود في أميركا، وإلى ما قبل ماركوس غارفي الذي كان ينادي أيضاً بهذه الفكرة. فمنذ القرن التاسع عشر كان قادة السود يطالبون بالانفصال عن أميركا، وكانت الحكومات الأميركية المتعاقبة في ذلك الوقت تؤيّد هذه الفكرة، وقد وُضعتْ في ذلك الوقت خطط عديدة لاستعمار منطقة الكاريبي وبالتحديد هاييتي، أو مناطق أخرى من افريقيا، من قِبَل الملوَّنين في أفريقيا وبدعمٍ من الحكومة الأميركية. وكان الرئيس الأميركي ابرهام لينكن من أشد المؤيدين لهذه النزعة، ووَعَد في اجتماعٍ له مع قادة الزنوج في العام ١٨٦٢ بتقديم مساعدات حكومية لخطط الاستعمار وقال «ليست هناك رغبة من قِبل شعبنا [البيض] ببقائكم أنتم الملونين الأحرار بيننا.... ولهذا من الأحسن لنا كلينا أن نكون منفصلين». ويرجع هذا الموقف الى أنّ مجموعةً من القادة الأميركيين البيض كانت ترى أنّ الطريقة المثلى للتخلص من مشكلة العبودية هي التخلص من العبيد وإرسالُهم خارج أميركا.

ومن جانب آخر، هناك موقف مؤيد لإسرائيل، وشائع بين شريحة كبيرة من اليساريين الأميركيين إلى درجة تثير الذهول أحياناً. فالكثير منهم تتوقف يساريتهم عن العمل عندما يصل الأمر إلى اسرائيل، ويصبحون ملكيين أكثر من الملك.

قد يقول قائل إنّ من غير العدل أن نطلب من مالكوم أكس أن يكون منصفاً بحق نضالات الشعوب الأخرى، وهو ينتمي الى شعب يتعرض للقمع والوحشية منذ عدة قرون ولم يأبه أحدٌ من الشعوب الأخرى لعذاباته. ولكنني أستذكر هنا ما قاله مارتن لوثر كنغ الابن في رسالته من سجن برمينجهام [المنشورة في العدد ١ / ٢ ١٩٩٩ من الآداب]: «إنّ غياب العدل في أيّ مكان هو تهديدٌ للعدل في كل مكان».

إنّ الحكم الأخلاقيّ لا يتجزأ. فنحن بدورنا علينا أن نُقرّ بأنّ تغاضينا عن عذابات أيّ شعب هو طعنة في نضال شعبنا نفسه. ورُبَّ مَنْ نافح منا عن حقوق الشعب الفلسطينيّ بيد، وجَلَدَ شعباً آخر (كالأكراد مثلاً) باليد الأخرى!

أ.ح.ح. ــ نيويورك

الحلقة الثالثة من «مثقفون ومناضلون أميركيون سود»:

مومیا أبو جمال